عائد إليك يا دمشق

نسيبة هلال

رواية



عائد إليك يا دمشق

رواية

عائد إليك يادمشق: رواية / نسيبة هلال .- دمشـــق: دار الفكر ٢٠٠٩ .- ٢١٦ ص ؛ ٢٠ سم.

١- ٨١٣,٠٣ هــ ل ا ع ٢- العنوان ٣- هلال

مكتبة الأسد

إهداء

إلى جدتي التي أمسكت بأصابعي وعلمتني كيف أخطّ الكلمات. .

إلى جدتي التي كانت تثق بحروفي وكلماتي ورأت فيها موهبتي. .

إلى جدتي التي عاشت معي قصة زياد كلمة. . كلمة. .

أهدي هذه الرواية إلى جدتنا جميعاً السيدة رشيقة العمري تغمد الله روحها بالرحمة. .

عساي أردّ بعض الجميل

نسيبة

(١)

دخلتُ الصيدلية بعد تردد غير قصير فوجدت بعض الزبائن.. وضعت في اعتباري أنّ من تقف هنا ربما لا تكون سماء الصافي.. صاحبة الصيدلية.. تلك المرأة التي أبحث عنها؛ بل لعلّها مجرّد موظّفة..

كنت أحاول ألا أصعّد آمالي.. كي لا أشعر بالصدمة كعادتي..

رمقتها بطرف عيني وأنا أقلّب النّظر في رفوف الأدوية..

عيناها العسليتان.. كانتا تلمعان بقوة شخصيتها وذكائها..

أعجبتني شخصيّتها وطلّتها أول وهلة .. لا أنكر ذلك.. وشعرت بالفخر..

حين فرغ المكان إلّا مني ومنها.. التقت نظراتنا.. وسألتني: بم أستطيع أن أساعدك؟

كنت قد حضّرت في ذهني عدداً لامتناهياً من السيناريوهات حين كنت في الطائرة منذ عدة أيام، وفي سيارة الأجرة التي ركبت فيها قاصداً ملاقاتها منذ قليل..

ولكن كل ما كنت قد حضّرته في تلك اللحظة المربكة تخلّى عني.. وبقيت أنظر إلى وجهها لدقائق.. وأنا منعقد اللسان.. والعرق يتصبّب مني في هذا الطقس الماطر..

ضاقت عيناها وهي تنظر إليّ.. وقالت بلهجةٍ حازمة: عفواً ماذا تريد؟

سؤال صعبٌ ومحدد.. هكذا حدّثت نفسي..

ولكنني رفعت صوتي سائلاً: هل أنت الصيدلانية سماء الصافي؟

ردّت: نعم أنا هي.. أيّ خدمة؟؟

سألتها: أخوك هيثم الصافي؟

قالت: نعم.. كان حاجباها يرتفعان في فضولٍ وضيق..

لست أعرف كيف حبكت لحظتها أكذوبةً صغيرة.. هي أقرب إلى الصدق منها إلى الكذب..

وقلت: صديقي في كندة أعطاني رسالةً لأوصلها إليه.. فهل من الممكن أن تعطيني رقم هاتفه؟؟

بدا عليها الشك.. ولم تجبني..

احترمت شكّها وصمتها أيضاً.. فقلت: حسناً أنا زياد.. أخبريه أن يتصل بي..

وهذا رقم الفندق الذي أمكث فيه..

انسحبت خارجاً وأنا أشكرها.. بينما كانت عيناي ما تزالان معلّقتين بها..

مشيت قليلاً.. وأنا أفكّر في تفاصيل لقائنا منذ قليل.. بينما لم تغب صورتها عن ذهني..

أوقفت سيارة أجرة.. وركبت.. بينما كان المطر يغسلني بقطراته..

سألني السائق: إلى أين؟

فكرت برهةً: أين مخابئك يا دمشق..؟

كم حدّثني جدي عن أمكنتك التي يختبئ فيها الإنسان من نفسه..

قلت: إلى سوق الحميدية.

حدّثت نفسي: (سماءُ جميلةٌ جداً وبعيدةٌ جداً.. كاسمها.. تبدو أصغر مني..لكنها لا تشبهني.. وقويّة الشخصية أيضاً... ربما ظنّت بي الظنون..)

ارتعشت من أعماقي لهذه الفكرة..فاستبعدتها فوراً..

توقفت بي سيارة الأجرة في وسط الشارع..

أشار لي السائق إلى السوق المغطى فنزلت..

كنت مبتّلاً حتى العظام.. ولكني شعرت بالراحة وأنا أدخل تحت سقف السوق..

وعلى الطقس الممطر.. كان الناس يتزاحمون داخله..

تكاد أكتاف الناس تتعانق فيه لكثرتهم.. في حين كانت الشمس تشرف على المغيب..

كان ذلك من أجمل المخابئ التي دخلتها في حياتي..

تلك المخابئ التي تختبئ فيها من نفسك.. وتذوب مع من حولك.. لتنسى همومك ومشاكلك..

* * *

(٢)

في غرفتي جلست هناك على شرفتها أرقب المطر.. أنتظر سماع صوت الهاتف.. أتوسّل إليه كي يرن.. كي يتّصل بي هيثم..

لكن الهاتف خيّب أملي وظلّ صامتاً..

صوت فيروز.. كان يأتيني من البعيد..

خدني على طلاتها الحلوة
خدني على الأرض يلي ربتني
انساني على حفاف العنب والتين
اشلحني على ترابات ضيعتنا
البواب العتيقة عمتلوّحلي
وصوت النهورة بينده الغيّاب
وعيون الشبابيك تشرحلي
صحاب عمبتقول نحنا صحاب
امشي على طرقات منسية
دنية غياب ورح يبيت الطير
انطر شي ايد تسلّم عليّ
شي صوت عمبيقول: مسا الخير

خدني ازرعني بأرض لبنان
بالبيت يللي ناطر التلة
افتح الباب وبوّس الحيطان
واركع تحت أحلى سما وصلّي

مللت انتظار صوت الهاتف.. وبعد؟؟

قوةٌ هائلةٌ من أعماقي دفعتني إلى القيام وارتداء ملابسي..

نعم.. يجب أن أذهب باحثاً عنهم..

لن أتأخر أكثر من ذلك.. وليكن ما يكون..

أخرجت العنوان وركبت سيّارة أجرة..

بدأت أشعر بالدفء.. بينما كانت دقات قلبي تتسارع..

تفصلني عن منزل أبي وإخوتي لحظاتٌ فقط..

لن أنتظر حتى يعثروا عليّ هم.. بل أنا الذي سأعثر عليهم..

* * *

(٣)

في حارةٍ صغيرة اصطفّت على جانبيها أشجار الكينا.. توقفت بي سيارة الأجرة ونزلت..

كان المطر قد توقف.. وبدأت أوراق الشجر المبتلّة تنشر رائحتها المنعشة.. لتدخل إلى أعماقي الحزينة المترقبة..

توجّهت إلى الدكان الصغير.. وسألت صاحبه عن منزل السيد عدنان الصافي..

أشار إلى البناء القديم.. الذي توقفتُ أتأمله ببطءٍ متعمد.. وأنا أفكر: إنني حينما أصعد تلك الدرجات لأدقّ الباب.. فلن يمكنني بعدها التراجع..

وقفت بين شجرتي كينا أنظر إلى الباب بينهما للحظات.. وأنا أفكر في علاماتٍ خفيةً يمكن أن تكون قد تركتها يد والدي حين كان يدفعه داخلاً أو خارجاً من بيته حين كان حياً..

وضعت يدي بحذرٍ عليه وأنا أدفعه بلطفٍ فأصدرَ صوتاً..

افترضت أنه ترحيبٌ بقدومي..

بدأت أصعد الدرجات الخمس المؤدية إلى باب البيت.. بينما كنت أشمّ رائحةً ملكت عليّ حواسي..

رائحة طعام شهيٍّ تعدّه الأمهات ممتزجةً برائحة المنظفات المنزلية..

ضغطت زر الجرس وانتظرت مصغياً وأنا أسمع صوته يتردد في السكون..

ثم لا شيء؟

لم أسمع أي حركةٍ وراء الباب أو صوتاً ينبئ أن هناك شخصاً ما يتقدم باتجاهه ليفتحه..

وبيأسٍ عدت فرننت الجرس..وعاد الصمت الحبيس يطوقني..

كنت واقفاً متردداً.. فقد كانت الفكرة التي لم تخطر ببالي: أن يكون المنزل فارغاً..

حين استدرت لأنظر حولي باحثاً عن مخرج.. رأيت وجهاً يطلُّ من فوقٍ يتأملني بفضول.

حين التقت نظراتنا.. قالت المرأة العجوز:

البيت ليس مسكوناً.. فأصحابه هجروه منذ زمن.. عمن تبحث يا بني؟؟

سألتها: أليس هذا منزل عدنان الصافي؟

قالت: نعم، رحمه الله.. ولكنه توفّي منذ عشر سنوات.. هل تبحث عنه؟

لقد جئتَ متأخراً..

لم تدرك أنها بجملتها الأخيرة قد طعنتني في الصميم..

أجل لقد جئتُ متأخراً ولكنني أتيت على أيّ حال..

كانت لديّ الشجاعة لآتي..

أجبتها بصوت عالٍ: بل أنا أبحث عن أولاده هيثم وسماء ورياض..

ردّت:كلّهم متزوجون ويعيشون في بيوتهم.. من أنت يا بنيّ؟

نفذ صوتها إلى أعماقي وأنا أفكّر:لم تكون الأسئلة العاديّة التي يسألنا إياها الآخرون شديدة الصعوبة علينا ونحن نفكر في إجاباتها..؟؟

حبكت الكذبة الثانية (التي لم تكن كذبةً بالمعنى الحرفي.. كانت فقط: البوح بجزءٍ من الحقيقة)؛ وقلت: أنا قريبهم.. كنت مسافراً منذ مدةٍ طويلة وعدت منذ يومين إلى دمشق فقررت أن أمرَّ لأطمئن عليهم..

قالت بحنان: تعال يا بنيّ.. فأنت من رائحة الحبايب..

تعال واشرب معي فنجاناً من القهوة..

لم أكن معتاداً على دخول بيوت أناس لا أعرفهم..

ولكنني في تلك اللحظة لم أتردد في صعود الدرجات خلفها والدخول..

وأنا أشعر أنني أدخل إلى عالمٍ مجهول..

وكأنني أدخل إلى عشّ جدتي الحنون..

كانت الأرضيّة مغطاةً بالسجاد..

وقفتْ تنظر إليّ لترى ما سأفعله..

فخلعت حذائي ووضعته جانباً ودست حافياً فوق سجادتها..

وكأنها كانت تمتحنني..

ابتسمت وهي ترحب بي بحسن ضيافةٍ لم أتوقعها.. وكأنها كانت تتمنى ضيفاً من السماء..

كان وجهها مليئاً بخطوط الزمن العتيقة.. كل واحدٍ يحكي حكايةً من حكاياتك يا دمشق..

عادت تلك الرائحة لتملك عليّ حواسي من جديد.. رائحة الأمومة.. رائحة طبخ جدتي.. رائحة ملابس صلاتها الموضوعة جانباً..

في غرفة جلوسها تلك جلست.. وأنا أشعر بحالةٍ من الخدر تستولي عليّ..

كانت الغرفة ببساطتها وأناقتها تنم عن ذوقٍ رفيع..

سألتني كما تسأل أيّ عجوزٍ دمشقيةٍ تهمّها العائلات العريقة: ابن من أنت؟

عيناها كانتا تلمعان بقوةٍ وجاذبيةٍ وهيبةٍ على مظاهر الشيخوخة التي كست وجهها..

قلت: أنا من بيت الصافي.. اسمي زياد..

قالت: وما وجه قرابتك بعدنان الصافي رحمه الله؟

حدّثت نفسي: إنّه أقرب مما تتصورين.. وأبعد مما أتصور أنا..

ولكنني أجبتها: إنّه أحد أبناء عمومتي.. وقد فكّرت في زيارة أولاده..

لمحتُ الألم الذي كان يرتسم في أعماقي.. فما كنت جديراً بكذبةٍ كهذه..

لماذا كذبتُ؟

هل لأحمي سمعة أبي بعد وفاته بعشر سنين؟؟

أم لعلي خجلٌ من حكايتي الحزينة..؟

استغرقت في تأملاتي ناسياً وجودها.. فلم أشعر بخروجها من الغرفة..

تذكّرت عندما عاد جدي إلى البيت حزيناً منذ عشر سنوات.. ليخبرني بوفاة أبي..

وكيف انفجرت ضاحكاً أمامه عند سماعي الخبر..

هل كنت أضحك من شدّة الحزن..

أم ضحكت متجاهلاً حزني..

أم ضحكت ساخراً من وفاة شخصٍ لا أعرفه وربما تهمّني جداً..

أم لعلّه كان قد مات بالنسبة إليّ منذ الأزل؟؟

أتأمّل الغرفة بحزنٍ وأنا أشعر بالنّدم على كذبتي..

لم أتعوّد الكذب.. وبالذات على امرأةٍ عجوز.. ولكن كيف لي أن أخبرها بالحقيقة؟

كيف أخبرها أنني ابن عدنان الصافي الذي لم أره في حياتي؟

وأنني جئت باحثاً عن إخوتي..

شعرت بعودتها بعد برهةٍ قصيرة.. حاملةً صينية..

وضعت أمامي زبدية أرزٍ بالحليب وهي تقول: ذق، هذه من صنع يد خالتك فطمة خانم.

كلمة: (شكراً) التي قلتها بدت زهيدةً جداً مقارنةً بالحفاوة التي ضمتني بها..

بدأتِ الحديث وهي تتأوه.. في حين بدت عيناها تائهتين في بحر الذكريات: الله يرحم عدنان الصافي.. كان رجلاً شهماً.. كريماً.. شخص يندر وجوده.. كانت جيرته مغنماً..

كنّا أكثر من أهل.. كان صديق زوجي.. وكنت صديقة زوجته.. رحمهم الله..

كانت أياماً حلوة..

كانت عيناها تومضان حين تابعت:

كنّا نشرب القهوة أنا وزوجته كل صباح.. يسهر هو وزوجي كل ليلةٍ يلعبان الطاولة على الشرفة..

نـخـرج أنـا وأم ريـاض لـلـسـوق.. أو لـبـعـض الزيارات.. الله يرحمها ويرحمه..

كانت كأختي.. ماتت بعد موت زوجها بسنةٍ فقط.. لم تستطع العيش من بعده..

فتكاثرت عليها الأمراض وماتت..

تأمّلتُ برهةً... أيفترض بي حقاً أن أحزن لموتها.. وهي التي مكث معها ومع أولادها بدلاً من أن يمكث معي أنا وأمي؟؟؟؟

أم يفترض بي الحزن لتأخر موتها عن موته؟؟؟؟

في جوٍّ كهذا كنت منجرفاً وراء أفكاري وأنا أشعر بأصابعي المشدودة تضغط كقبضةٍ تستعد لشيء ما؟! ولم أعرف ما أقول؟!

بعد لحظات سألتها إذا كان بالإمكان إعطائي عنوان أحد أبناء عدنان الصافي.. عندها أحضرت لي عنوان مكتب المحامي هيثم الصافي.. فاستأذنت في الانصراف.. قالت لي ونحن على الباب: عندما تأتي إلى الشام مرةً أخرى لا تنسَ أن تمر عليّ..

أنا خالتك فطمة خانم..

(٤)

وعدتها.. وودّعتها ومضيت..

متجهاً نحو مكتب المحامي هيثم الصافي.. متخذاً قراري بمصارحته بالحقيقة.. وليكن ما يكون..

لطالما وصفتني أمي بالجموح الطائش.. ولكن هذا السر يكاد يقتلني.. ولن أستطيع إلّا أن أبوح به..

دخلت مكتبه وطلبت مقابلته.. دون أن أعلن عن اسمي..

كنت أتصبّب عرقاً..

ربما من المسافة التي مشيتها.. أو الناس الذين سألتهم في الطريق عن العنوان.. أو ربما من الخوف والترقب..

ترى كيف سيستقبلني إن عرف أنني.. أخوه..؟

انتظرت قليلاً في حين تركت أنفاسي تهدأ.. إلى أن تفرّغ لمقابلتي..

في حين كنت أخطو داخل غرفته.. كنت متأكداً أنني على وشك رؤية أخي: هيثم..

كان واقفاً هناك يمسك بيده ملفاً.. يبدو طويل القامة.. وفي ملامحه نبلٌ رفيع..

بدا شبيهاً بما رسمته في خيالي لملامح شخصيته.. ولكنه كان في الواقع أكثر غموضاً..

عندما نظر إليّ نفذت عيناه لداخلي.. وللحظةٍ شعرت أنه جرّدني من كل أقنعتي..

وأنني لن أستطيع أن أكتم أي تفصيلٍ صغيرٍ في قصتي..

مد يده مصافحاً.. فصافحته.. ها أنا ذا أصافح أخي لأول مرة..

طلب إليّ الجلوس في حين جلس هو وراء مكتبه..

بعد دقيقةٍ من الصّمت حين بدا وكأنه قد تفحّصني من قمة رأسي إلى أخمص قدمي.. سألني عن سبب زيارتي..

من الغريب أنه لم يسألني عن هويتي.. لذلك قلت: أحبّ أن أعرّفك بنفسي.. اسمي: زياد الصافي..

رفع حاجبيه استغراباً ثم قال: أهلاً وسهلاً.. إذن أنت من العائلة..!

عاد ليقول وفي نبرته شكٌّ غريب: ابن من أنت؟

رنّت هذه العبارة في ذاكرتي بصوت السيدة العجوز

التي قالتها قبل قليل.. ولكن اللّهجة كانت مختلفةً تماماً..

لهجة العجوز كانت لهجة ترحيبٍ وفضول عجائز.. أمّا هذه فلهجة شكٍّ وترقب..

أطلقتها كقنبلةٍ انفجرت في الفضاء.. مستشعراً كل حرفٍ خرج من فمي وكأنني أعلن للعالم بأسره: والدي هو عدنان الصافي..

كان التعب قد نال مني.. فقد كانت جملتي الأخيرة التي قلتها قد استهلكت كل طاقتي..

بتُّ أنتظر ردة فعله.. كان من الواضح لديّ أنني سببّت له صدمةً ما.. وأن عينيه ثبتتا تحدّقان في عينيّ..

شعرت بالتشفي والرضا للحظات.. لماذا؟؟ لست أدري..

ترى هل كانت صدمته ناتجةً عن جرأتي..؟ أم عن دهشته من الخبر نفسه.؟

ساد صمتٌ ثقيل.. جعلني أشكّ أنّه كان يتوقع المعلومة لسببٍ مجهولٍ لديّ..

ذلك لأنني قرأت في وجهه الانزعاج بدلاً من الدهشة..؟

وبهدوء.. ودون أن أنطق بحرف..أخرجت جواز سفري من جيبي وأعطيته إياه..

بدأ يتفحصّه بهدوءٍ وتمعن..

أحسست بالاختناق من جرّاء الصّمت الثّقيل الذي خيّم على الغرفة..

للحظة شعرت بسخافة موقفي وتمنيّت لو تنشقّ الأرض وتبتلعني..

وأخيراً.. وبعد لحظاتٍ دامت كسنواتٍ بالنسبة إلي.. رفع نظره عن جواز السّفر.. وناولني إياه وقال بابتسامةٍ متحفظة: أهلاً وسهلاً.. ماذا تحبّ أن تشرب؟؟

* * *

(٥)

هزةٌ عنيفةٌ اجتاحتني من قمة رأسي إلى أخمص قدمي..

أحقاً أهلاً وسهلاً بي؟

شعرت وكأنني عاصفةٌ على وشك الانفجار..

أكثر ما أغضبني.. أنه تلقى الأمر بهدوءٍ تام.. في حين كنت أنا أعاني منه طوال حياتي..

واحتجت إلى كثير من الجرأة لآتي هنا وأفصح عنه؟؟

قاطع سيل أفكاري الغاضب حين سمعته يقول بصوتٍ غريبٍ بارد: ما الذي أتى بك إلى هنا الآن؟

هذه المرة كذبت الكذبة الثالثة التي كانت أبعد ما تكون عن الحقيقة.. وقلت:

لي بعض الأعمال في دمشق فقررت أن أمرّ عليكم وأسلّم..

كان الألم يعصف بي.. وأنا أفكر أنني قطعت كل تلك المسافة لأراه.. وأرى سماء ورياضاً..

هببتُ واقفاً وأنا خائفٌ من ارتكاب أي فعلٍ أحمق بسبب غضبي..

لكنّه طلب إليّ البقاء..

نظرت في عينيه باحثاً عن أي لمحة غضبٍ أو حزنٍ أو أسى.. وقرّرت أن أنسحب..

ولكّنه سألني: أمّك هي هناء الصباغ؟

جلست مترنحاً.. فحين لفظ اسمها.. بدا لي أنه تعوّد لفظه في زمنٍ غير هذا!؟

أو لعلّها مجرّد تهيؤات؟؟؟

رفع سماعة الهاتف.. وسمعته يردّد بعض الكلمات..

فهمت منها أنه طلب من الموظف عدم إزعاجه.

استند إلى مقعده ورفع رجلاً فوق رجل..

ثم قال لي: حسناً.. أخبرني كيف حدث هذا!؟

لديّ فضولٌ لأعرف كيف.؟؟

تمالكت نفسي وأنا أقول لها: إنّها فرصته الأخيرة التي يثبت فيها حسن نيّته..

وبدأت أحكي له بشكلٍ مقتضب:

في عام ١٩٧٥ كانت والدتي تعيش مع والديها في كندة.. حيث كان جدي يعمل في السفارة السوريّة في مونتريال..

وجاء عدنان الصافي.. وكان صديقاً لجدي فدعاه عدة مراتٍ إلى منزله..

وتعرّف أبي إلى والدتي وجدتي.. وأخبرهم أنه طلّق زوجته مؤخراً..

ثم طلب يد والدتي للزواج..

كانت أمي طالبةً جامعيةً آنذاك.. وكان فرق العمر بينهما كبيراً.. ولكنهما تزوّجا ومكثا معاً عدة شهور..

قرّر بعدها عدنان العودة إلى دمشق.. ولكنها رفضت العودة معه؛ فقد كانت مضطرةً للبقاء لإكمال دراستها الجامعية.. عندها سافر عدنان إلى دمشق وتركها..

ويبدو أنه حينها عاد وتزوج زوجته الأولى.. وندم على زواجه بأمي فأرسل إليها ورقة طلاقها..

كانت أمي حينذاك حاملاً بي في شهرها الثالث، وكانت تنوي إخباره بذلك، ولكنها عندما علمت بطلاقها وعودته لزوجته الأولى.. عاندت ولم تخبره بحملها..

هذه هي الحكاية...

ساد صمتٌ ثقيل للحظات.. كانت في عينيه نظرة ضياع..

قام من كرسيه واتجه إلى النافذة واستند إليها..

أدركتُ بعدها بلحظات أنه نسي وجودي تماماً..

ترددت هل أترك له رقم هاتفي.. فتركت له بطاقة الفندق مكتوباً عليها اسمي ورقم الغرفة التي أقيم بها..

وخرجت أجرّ نفسي جراً..

* * *

(٦)

حين وصلتُ إلى قهوة النوفرة.. بعد جهدٍ جهيد..

جلست بين تلك الجموع الجالسة.. محاولاً تجاهل نبضات الألم التي كانت تشتعل في داخلي.. أرتشف القهوة وأستمع لما تقوله أم كلثوم..

يا فؤادي لا تسل أين الهوى
كان صرحاً من خيالٍ فهوى
كيف ذاك الحبّ أمسى خبراً
وحديثاً من أحاديث الجوى

تعالى ألمي على صوت أم كلثوم وسألني ذلك الألم: لم فعلت ذلك؟

لم تكبّدت عناء القدوم إلى دمشق؟

دمشق تلك المدينة الحزينة..

لم قلبت حياة أناسٍ ربما تحبّهم؟

لم تكشف ماضيهم المدفون؟

كنت أشعر بجبل يجثم فوق صدري..

فكل تلك الأسئلة كانت مؤلمةً حقاً..

ولكنّ الكلمات الأكثر إيلاماً والتي تفجّرت في أعماقي هي تلك التي ردّدتها أمي على مسامعي قبل مجيئي إلى هنا حين كنّا نتشاجر حول سبب سفري:

لم ستسافر؟ ما هدفك من السفر؟

لم تريد نكش قصصٍ قديمةٍ ستجرُّ عليك وعلى من حولك الآلام؟

لم تريد نبش الماضي؟ أحقاً تريد التعرّف بعائلتك؟

ألا نكفيك أنا وجدّك وجدّتك وإخوتك الصغار؟

حدّثت نفسي:

حقاً ما قالته أمك.. فقد كنت تحسب نفسك مغامراً.. ستتعرّف بإخوتك وتكتب روايةً عن مغامراتك..

ولم تكن تدري أنك تلعب بالنار وأنك أوّل من سيحترق بها..

لم تكن تدري أنك أضعف من الفراشة حين تحوم حول اللهب..

ها أنت تجلس هنا في قلب مدينةٍ قديمةٍ وحيداً..

مع كل الزحام الذي يحيط بك والأصوات التي تتعالى فوق صوت خواطرك..

في حين كنت تعيش هناك عزيزاً يحبّك كلّ من حولك ويعترفون بمكانتك بينهم..

فجأةً.. وكعادتي مع الأفكار الغريبة التي تنبثق أحياناً.. انبثقت لديّ فكرة العودة إلى كندة على أول طائرة..

كتلك الفكرة التي راودتني منذ عشرة أيامٍ بأن آتي إلى دمشق لأبحث عن إخوتي..

إثر إعادتي قراءة رواية الخيميائيّ..

تلك الأفكار المجنونة التي لا تنفكُّ تأخذ طريقها إلى عقلي..

آه.. أود لو أرتاح منها قليلاً فقط..

حاولت وضعها على الطاولة مرفقةً بثمن القهوة.. هارباً خارجاً قبل أن تلحق بي..

* * *

(٧)

اتصل بي معتصم الذي طلبت منه على الهاتف منذ عشرة أيام الاستفسار لي عن مكان أبناء عدنان الصافي.. وأعطاني عنوان صيدليّة أختي سماء على الهاتف أيضاً..

معتصم صار صديقي على الهاتف بعد أن كلّفته بتتبُّع أخبار إخوتي.. عرّفني به أخوه جمال الذي يسكن معي في شقتي بمونتريال والذي يدرس الطب..

حددتُ موعداً مع معتصم عندي في الفندق.. وانتظرته هناك في الردهة..

كنت متعباً جداً لأنني لم أنل كفايتي من النوم لعدة أيام.. فقد كنت أنتظر اتصالاً من أخي هيثم، ولكن ها قد مرّ يومان ولم يتصل..

دعوت معتصماً إلى فنجان قهوةٍ، وجلسنا نشربها في ردهة الفندق..

سألني عن مظاهر التعب على وجهي..

ابتلعت حزني وسألته عن أخته سها.. محاولاً تغيير مجرى الحديث.. فقد حدّثني جمال قبل سفري عن انفصالها عن زوجها..

أخبرني معتصم أنها تمكث عنده هي وبناتها..

ألح عليّ معتصم لأتعشى عنده.. حاولت الاعتذار ولكنه تشبّث بي وسحبني معه..

نظرتي عن البيوت الدمشقية المضيافة بدأت ترسخ في ذهني وأنا أراه يستقبلني في بيته..

على شرفته المطلّة على قاسيون جلسنا..كان منظراً رائعاً..

جاء ولداه عادل وعمر.. وجاءت برفقتهما سلمى وسمر ابنتا سها..

جلس الأولاد حولي يسألونني عن جمال.. فأعطيتهم الهدايا والأكياس التي أرسلها إليهم.. فركضوا إلى الداخل محتفلين وهم يحملونها..

لم أعد أراهم.. بينما كان معتصم قد غاب أيضاً في الداخل..

كان الغروب قد بدأ يلوّن السماء بلونها الأرجوانيّ.. وبدا لي قاسيون يبكي دماً..

وكأنه شعر بفجوة الحزن التي تكاد تبتلعني..

فقد بدت البيوت على سفحه تنتظر من يفتح أبوابها ليكشف أسرارها..

صوت العصافير وذلك المشهد سيطرا على إحساسي حتى إنني لم أشعر بدخول معتصمٍ يحمل صينية العصير.. وجلسنا نتحدث..

حكيتُ له عن جمال وكيف وجد صعوبةً كبيرة في التأقلم مع جو الجامعة.. وكيف كنّا نقضي الأيام معاً.. ومغامراتنا هناك..

حكى لي عن أخته سها التي طُلّقَتْ من زوجها نهائياً.. بعد أن استيقظت في يوم من الأيام على زواجه بأخرى لأنه لم يعد يحبها..

حاول زوجها كثيراً أن يبقي عليها زوجة.. ولكنها رفضت بشكلٍ قاطعٍ وجاءت تسكن عند معتصم مع بناتها..

أخذتنا الأحاديث إلى أن مرّت ساعةً أو ساعتان دون أن أشعر.. سرعان ما سحبني إلى مائدة العشاء في الداخل.. عرّفني بزوجته هدى وبأخته سها..

وجلسنا نتعشى وكأننا جميعاً أفراد عائلةٍ واحدة..

سألتني زوجته هدى ونحن نتناول الطعام:

_ أعرف أن سؤالي ربما يزعجك ولكنّ فضولي يدفعني إلى أن أسألك: ما الذي أتى بك إلى دمشق؟

وتابعتْ: هل هناك أحد ولد في كندة وعاش فيها عشرين أو ثلاثين سنة.. ثم يأتي إلى سورية؟

هل أنت هاوي فقر أم تخلف أم ماذا؟!

ضحكتُ وقلتُ لها: جئت لأتعرف بعائلتي وبموطني الأصلي.. أَوَفي ذلك شيء غريب؟؟

عادت لتقول:

_ عائلتك كلها - كما أعرف - في كندة..

أجبتها: إخوتي من والدي يعيشون هنا..

استغربت كثيراً وطلبت مني أن أحكي لها الحكاية.. في حين كان يجلس معتصم مبتسماً وقد بدا عليه الاستمتاع بالتحقيق الذي تجريه زوجته معي..

حكيت لها حكاية والدي ووالدتي..

ولكنها عادت فسألتني: حسناً ولم الآن بالذات؟ لمَ لم تأت قبل موت والدك؟؟

ألم يخطر ببالك أن تأتي لتتعرّف به؟

سؤالها صدمني وكأنني تلقّيت ضربةً على رأسي..

حقاً! لِمَ لَمْ أُرد التعرّف به؟

هل كنت أكرهه لأنّه لم يحاول أن يتعرف بي..

هل كانت كرامتي تنزّ من الألم يومها؟؟

أجبتها: كنت حينها طالباً في الجامعة في العشرين من عمري ولم أفكر في هذا الأمر..

قالت: ولكنك لم تخبرني؛ لِمَ الآن بالتحديد؟

قاطعها معتصم قائلاً: لا تحرجيه.. دعيه..

سرحت بعيداً في سؤالها؛ فقد كان منطقياً جداً.. حقاً يا زياد لم؟؟

تذكرت آخر رواية قرأتها: رواية الخيميائي.. لمؤلفها: باولو كويللو..

تلك الرواية التي جعلتني أفكّر طويلاً في كنز حياتي الذي يجب أن أعثر عليه..

حينها فاتحت والدتي بقرار السفر إلى دمشق.. فثارت عليّ معتبرةً أني أبحث عن المشاكل،

وأن سفري لن يزيدني إلّا كآبة..

كل ذلك تذكّرته وأنا أنظر إلى صحني شبه الفارغ في حين أفكر كيف أن توقّعاتها تكاد أن تتحقق..

سمعت هدى تعتذر إلي عن إلحاحها في سؤالي ولكني طلبت منها أن تنسى الأمر..

كانت سها تتفحّصني وهي تسألني عن صحة أخيها جمال ودراسته في كندة...

بعد أن أجبتها كنت أحاول لملمة أجزائي المبعثرة للعودة إلى غرفتي في الفندق.. مشوشاً من الذكريات التي جالت بخاطري... ومن نظرات سها التي اخترقت أعماقي أيضاً..

لم أدرك إلى الآن كم تكون أسئلة الآخرين مربكة.. ربما لأنها تكشف لنا جانباً من شخصياتنا كنّا لا ندركه..

(٨)

جاءني صوت جدي عبر الهاتف مثيراً في أعماقي موجةً من الحنين..

سألني: زياد، كيف حالك؟!

لم أعرف بم أجيب.. هل أقول له: الخيبة من الأعماق.. تجاهلت الإجابة..

سألته عن صحته وأحواله وعن جدتي..

تنهد وقال: سأعطيك عنوان بيتنا لتمكث هناك..

اعتن بالحديقة واسق الأشجار لأجلي.. وامكث هناك في بيت جدك..

لقد طلبت من جارنا أبي محمود إعطاءك المفتاح..

كنت أعرف مدى تصميمه وعناده.. وكلمة (لا داعي) التي لم أنهها كنت أعرف أنها لن تثنيه عن عزمه..

قاطعني: أنت ابنٌ لعائلتين عريقتين: الصباغ والصافي.. وعيبٌ أن تمكث في فندقٍ ولديك بيت..

عاد صوته القويّ قائلاً: ثم إنّك لن تتعرّف بدمشق إلّا إذا مكثت في بيتٍ من بيوتها..

سألته وقد بدأت أشعر بالراحة تعاودني: كيف حال مخطوطك؟

أجابني: جيد.. أنتظر منك مذكراتك اليومية لأثبّتها في المخطوط..

كان جدي يكتب مخطوطاً عن تاريخ دمشق.. وقد طلب مني كتابة يومياتي ليثبتها في المقدمة كزيارة دمشقيٍّ لدمشق لأول مرة..

ولكنني كنت أدرك أن الهدف الحقيقي من طلبه يومياتي كان سبباً آخر.. هو أن يطّلع على أفكاري كعادته في ذلك.. وتسميته لذلك العمل بمساعدتي على أن أصبح كاتباً..

أغراني الصباح الرائع الذي أشرقت فيه الشمس من بين الغيوم على استحياءٍ أن أمشي.. ولكنّي حاسبت إدارة الفندق وحملت حقيبتي وركبت سيارة أجرة..

عندما استقبلني الجار أبو محمود على باب البناء وعانقني.. قال لي: أهلاً بك، أنت من رائحة الحبايب..

ضحكت من أعماقي.. وأنا أتذكر جدالي العقيم مع البروفسور في الجامعة حين كنت طالباً.. وكنت مصرّاً على أن الشمّ أقوى الحواس لدى الإنسان.. في حين كان هو مصرّاً على أن الشمّ حاسّةٌ ضعيفةٌ لدى البشر..

ها هم الدمشقيون يشمّون رائحة أحبائهم من بعيد..

مدخل البناء وتلك الدرجات الخمس التي كانت تؤدي إلى القبو بدت لي مألوفة.. تشبه درجات بيت أبي..

فتح لي الجار بالمفتاح وأعطاني إيّاه وقال بلطف: سأتركك لترتاح..

حملت حقيبتي ودخلت..

صالونٌ دمشقيٌّ قديمٌ تناثرت فيه تلك الكنبات العملاقة المصنوعة من خشب الموزاييك..

لم أنتظر.. فتركت حقيبتي وبدأت التجول..

غرفتا نوم.. وواحدة رئيسية..

غرفة السفرة والجلوس ثم بابٌ صغيرٌ تحته درجتان.. قفله غريب.. بحثت عن مفتاحه وفتحته..

كان البيت كلّه نظيفاً.. ما عدا هذه الغرفة التي تبدو وكأنها مهجورةٌ منذ سنين.. شغّلت الإنارة.. طالعني كرسيٌّ هزازٌ من الخيزران في الزاوية..

جهاز تسجيل أسطواناتٍ قديمٌ جداً.. بجانبه خزانةٌ مليئةٌ بالأسطوانات القديمة ثم مكتبةٌ كبيرة.. على الجدار بدت صورة أم كلثوم بالأبيض والأسود.. تقابلها على الجدار الآخر صورة فيروز..ثم صور أخرى صغيرة.. بدأت أتفحّصها.. كلها لجدي..

واحدة يظهر فيها باللباس العسكري..

أخرى يبدو فيها مع أصدقائه بتظاهرة..

ثمّ صورته مع جدتي يوم عرسهما.. ثمّ صورة لأمي وهي طفلة..

مسحت الغبار بحنانٍ من على جهاز الأسطوانات وشغّلته..

سمعت أزيزه وصريره.. ثم خرج منه صوت فيروز مشوّشاً:

طلعلي البكي ونحنا قاعدين

لآخر مرة سوا وساكتين

بعيونك حنين وسكوتك حنين

لو بعرف حبيبي بتفكر بمين؟

وجدتُك يا جدي..

ها أنا أقف بغرفتك التي تشبه غرفتك هناك في مونتريال..

هناك كنت تمنعني من الدخول إليها..

حتى جدتي لم تسمح لها بالدخول.. فقد كنت تنظفها بنفسك..

ولكنني كنت أنتهز فرصة غيابك متسللاً إليها دون علمك..بدافع الفضول الطفوليّ.. لأعبث بأغراضك التي كانت تبدو لي شديدة الغموض مشوبةً بالسحر..

ضبطتني مرةً متلبساً هناك أعبث بأسطواناتك..

توقعتُ يومها أن يكون حسابي عسيراً وبدأت بالبكاء..

ولكنك ضممتني وسحبتني من يدي وقلت لي: تعال يا بني أعرِّفك بأجمل مدينة في العالم.. تعال لأعرّفك بدمشق..

تعلمت هناك على يدك قصائد عمر أبو ريشة ونزار..

قرأت هناك دمشق يا بسمة الحزن..

هناك ألزمتني يا جدي بكتابة مذكراتي اليومية..

كنت تبتسم حين أقدم لك صفحةً مكتوبةً كاملةً في المساء وتشير إلى أخطائي الإملائية والنحويّة.. وتغضب وتحزن إن سهوتُ يوماً عن كتابة تلك الصفحة..

وأكون في أشدّ الفخر وأنا أرى دموعاً مختبئةً في عينيك وأنت تقرأ صفحتي..

سحبتُ نفسي من ذكرياتي وفتحت باب الحديقة وخرجت..

هناك كانت ياسمينة نزار تبتسم لي.. وشجرة النارنج شاركت في الترحيب بي..

والنافورة الصاعدة من تلك البحرة المربعة

الزرقاء.. التي تسبح فيها أسماك الزّينة الحمر والملونة..

ها أنت ذي يا دمشق تفتحين ذراعيك مرحّبةً بي..

انحنيت لألتقط تلك الياسمينات البيض الساقطة على الأرض وأشمّ رائحتك لتسري في دمي يا دمشق..

كنت محقاً يا جدي.. كما كنت في أغلب الأحيان..

حين قلت لي: لن تعرف دمشق إلا إذا مكثت في بيتٍ من بيوتها..

* * *

(٩)

دخلت إلى مكتب معتصم..

وقف دهشاً مرحباً وهو يقول: أين أنت يا رجل.. منذ أسبوع وأنا أبحث عنك.. اتصلت بالفندق.. فقالوا لي إنك غادرت مع حقائبك..

حسبتك عدت إلى كندة؛ ولكن جمالاً أخبرني منذ يومين أنك ما زلت في دمشق..

ضحكتُ وقلتُ له: كنت معتكفاً في بيت جدي...

دعاني إلى الغداء.. حاولتُ الرفض ولكنه أصرّ وسحبني معه إلى سيارته..

المطر يهطل بغزارةٍ خفت معها أن أتزحلق.. وتذكرت أمطار مونتريال..

قال لي عندما استقررنا داخل السيارة..

هذا أول شتاءٍ يمرّ على دمشق منذ وقتٍ طويل تنزل فيه الأمطار بهذه الكثرة....

يا أخي أنت أتيت إلى دمشق وبدأت الرحمة تنزل من السماء.. ليتك أتيت منذ زمن...

ضحكتُ.. وقلتُ له: المطر يشعرني أنني لم أسافر بعيداً..

قال لي: بما أنك تمكث وحيداً فيجب أن تتناول كل وجباتك عندنا..

عندما كلّمتُ جمالاً منذ يومين وسألته عنك وبّخني وعاتبني فكيف أتركك في غربتك في حين كنت أنت صديقه وأخاه وعائلته في غربته...

أجبته: أنا لست في غربتي.. أنا في وطني.. هل نسيت؟ دمشق هي وطني وعائلتي..

ضحك وقال: ذكّرتني بأختي سها الشاعرة.. تتغنّى دائماً بدمشق..

قبل أن تتزوج كانت تتغنّى بدمشق بسمة الفرح والحب.. والآن بعدما طُلّقت.. بدأت تتغنّى بدمشق بسمة الحزن..

ساد صمتٌ بيننا ولكنني كسرته بعد برهة بقولي: كيف حالها؟

تنهد وأجاب: لم تعد إلى طبيعتها منذ طلاقها..

سبحتُ في أفكاري وتذكرت سهراتي الطويلة مع جمال وحديثه الدائم عن سها.. نعود دائماً إلى المرأة... أكانت أختاً أم أمّاً... أم زوجةً وحبيبة...

أحببت كل عائلة جمال من كثرة حديثه عنها..

ولكنني أحببت سها بالأخص وتمنّيت لو أن لي أختاً مثلها..

كنت أسمع كلمات معتصم وأنا أفكّر في تلك الأفكار..

معتصم كان يحدّثني عن الطقس وعن زحمة الشوارع.. وعن إصلاح السيارة..

كلها أحاديث رجالٍ تتّسم بالسطحية والجفاف..

كنت أتوق لأحادث امرأةً حنوناً..

منذ عدة أيام كان يشتدُّ بي الحنين إلى شجار أمي..

إلى معانقة جدتي..

إلى ضيافة جارة والدي فطمة خانم..

إلى أي امرأةٍ ذات قلبٍ كبيرٍ تجد لديها فسحةً بقيت لي وحدي من حنان..

هذه المرة غدائي عند معتصم كان يعجّ بأصوات أطفالهم..

لم أرَ سها فقد اعتكفت في غرفتها..

هدى وحدها منحتني بعضاً من اهتمام أختٍ شكرتُها عليه..

فيما عدا ذلك كنت صامتاً.. في حين كان معتصم

يحاول إزاحة أمارات الكآبة عن وجهي بكلامه المستمر وثرثرته الطويلة..

سألني ونحن نشرب الشاي: ما الذي تنوي فعله..؟

سألته: اليوم.. أم في المستقبل؟

أجابني: أقصد المستقبل.. قلت: سأقضي رمضان والعيد هنا ثم أسافر..

قال: واليوم؟..

قلتُ: سأمرّ على صيدلية أختي لأعطيها عنواني الجديد.. عسى ولعلّ..

* * *

(١٠)

وقفتُ أمام الصيدليّة أتأمل واجهتها..

أتأمل كلماتي التي سأقولها..

أعود فأدققها قبل أن أقولها لأعرف ماذا سأقول..

خوفاً من أن تتوه الكلمات مني كما تاهت في المرة السابقة حين كنت هنا..

دخلتُ الصيدليّة.. كانت سماء تحادث زبونة..

وجهها فيه ابتسامةً لطيفةً كالشمس حين تشرق..

ولكنها حين رأتني تحوّلت ابتسامتها إلى تجهمٍ وألم..

لم أرد أن أحوّل سكينتها إلى حزنٍ فعدت أدراجي خارجاً من الصيدليّة.. لاعناً في سرّي اللّحظة التي فكّرت فيها بالمجيء إلى هنا..

ولكنها استوقفتني وهي تقول: انتظر لحظة من فضلك..

توقفت واستدرت، فعادت تنهي حديثها مع زبونتها.. توقفتُ وأنا أمسك بالباب.. محرجاً.. خائفاً..

خائفاً من الأمل.. خائفاً أن تعود آمالي فتنهار كما حدث منذ لحظة..

أجل، كنت خائفاً أشدّ الخوف في تلك اللحظة التي خرجت فيها الزبونة ببطءٍ من الصيدلية ونظراتها تخترقني بفضول..

نظرتْ إليَّ سماء وناولتني ورقةً وقلماً.. وقالت: أخي هيثم يبحث عنك..

سأل عنك في الفندق الذي كنت تقيم فيه فأخبروه أنّك رحلت..

طلب مني أخذ عنوانك وهاتفك إن جئت إلى هنا ثانية..

أخبرتها بالعنوان.. ورقم الهاتف.. في حين كانت آمالي تتخبط ثانية..

كنت أنظر إلى أختي وهي على بعد أمتار.. كانت تبدو بعيدةً جداً..

ألقيت السلام وخرجت..

مشيت وأنا أقول لنفسي: إلى متى؟

طوال ذلك اليوم وأنا أردد أنني سأمرُّ على الصيدلية لأعطي عنواني الجديد لإخوتي..

هذه كلها حججٌ واهيةٌ تخفي وراءها ألماً..

جئتُ لأرى أختي..

جئتُ لأسلّم على أختي...

لكن أختي كانت تتألم حين رأتني..

كان عهداً رسمته خطواتي على قطرات المطر تحتها..

لن أعود إلى هذا المكان أبداً..

لن أخطو داخل صيدلية أختي أبداً أبداً أبداً...

* * *

(١١)

في حين كنت في الحديقة أسقي الأشجار وأقتلع الأعشاب الضارة.. شاعراً بطاقة الأرض تتسلّل إلي..

وقد تسربت رائحة التراب المختلط بالماء فسكنت رئتيّ..

سمعت جرس الهاتف..

قمت مسرعاً لأردّ وأنا أظن أنه معتصم..

ولكن عندما رفعت السماعة فاجأني صوت عرفته للتو.. إنه صوت هيثم..

تحدّث معي بلهجةٍ رسميةٍ وسألني عن أخباري..

إشارة استفهامٍ كبيرةٍ اجتاحتني: هل تريد أن تعرف حقاً؟

أجبته: بخير..

سألني: هل يمكن أن تحدّد موعداً نراك فيه؟

قلت: في أيّ وقت..

أجابني: غداً مساءً إذا أمكن في مكتبي..

أغلقت السماعة وأنا أسأل نفسي: لم يريد أن يراني؟

من المؤكد أنه ليس شوقاً إليّ وإنما شوق إلى شيء آخر..

فقد كانت لهجة حديثه لطيفة ولكنّها متحفظة..

من الذي يريد رؤيتي؟ لو كان وحده لما قال: نريد أن نراك..

عدت إلى سكون الحديقة وتلك الأعشاب التي أقتلعها..

ورنّ الهاتف مرة أخرى..

هذه المرّة كان معتصم يسألني عن أخباري، وطلب مني الحضور إلى العشاء..

حاولت الاعتذار ولكنّه أصرّ أن أتعشى عنده قائلاً: تعال، فأنت من رائحة الحبايب..

سلمت لحبايبك يا دمشق..

* * *

(١٢)

حين دخلت إلى مكتب معتصم.. كنت أنوي أن أحكي له عن مكالمة أخي..

ولكنه كان مشغولاً لوجود سيدةٍ شابةٍ في مكتبه تسأله عن أسعار بعض اللوحات المعروضة على الواجهة..

لم أهتم كثيراً بتفاصيل حديثهما..

كنت أتفرّج على لوحةٍ في الخلف كانت قابعةً في الزاوية..

تاركاً إيّاه يهتمّ بعمله.. سحبت الغطاء الذي كان يغطّي جزءاً منها..

بفضولٍ تأملتها..

بدت لي لوحةً غير مكتملةٍ أسرتني..

كانت تمثّل في جانبها رأساً يمتدّ من بين القضبان، أما في جانبها الآخر فقد رُسمت الشمس وهي تغيب..

كانت محمّلة بالمعاني وخلّفت في نفسي خيطاً من الحزن كنت متأكداً أنّي لست بحاجةٍ إليه حالياً..

كنت مفتوناً بريشة ذلك الرسّام.. الذي استطاع أن

ينقل إليّ وأنا أشاهدها شعوره الرهيب بالعجز وراء القضبان...

في تلك اللحظة سمعت السيدة تطلب منه الاتصال بها في حال توافرت اللوحة التي كانت تطلبها وأعطته اسمها ورقم هاتفها..وغادرت..

عندما اقتربت من معتصم لأحكي له اتصال هيثم بي.. كان مطرقاً..

لم أكن أعرف معتصماً منذ زمنٍ طويل.. ولكني كنت قد استطعت أن أرسم له صورةً في ذهني.. فقد كان مرحاً ولطيفاً وطيب المعشر..

طوال معرفتي به التي لا تتجاوز عدة أيامٍ لم أر وجهه هكذا..

كان يبدو لي مصدوماً وهو يمسك ببطاقة تلك المرأة..

بصمتٍ جلس على الكرسي.. ووضع بطاقتها أمامه وغاب في شروده..

سألته: ما بك؟

وسحبت البطاقة بفضولٍ ونظرت إليها.. كان الاسم: عروبة النجار..

للحظاتٍ ظننت أنه لم يسمعني.. في حين كنت

أفكّر فيم يمكن أن يجعل معتصماً بهذا الارتباك والتشويش.. إلّا إذا كان شيئاً من الماضي؟؟؟

كان لدي فكرةٌ عن المكان الذي قضى فيه ربع عمره ربما..

استعاد وعيه ونظر إليّ.. وقال: ألم تشعر بالجوع بعد؟؟ هيا سنذهب للعشاء..

كان يحاول أن يبدو طبيعياً ولكنه كان أبعد ما يكون عن ذلك..

عاد فسحب البطاقة.. ووضعها في الدرج بحرصٍ، ثم أقفله ووضع المفتاح في جيبه..

طوال الطريق كان ساكتاً..

احترمت صمته وغرقت في أفكاري أنا الآخر عن الغد..

استقبلتنا هدى بترحيبها المعهود وسألتني: أين تختفي هذه الأيام؟

فشكرتها على اهتمامها..

جاءت سها تسلّم.. وكعادتها تجاهلت النظر في عيني..

كنت كلما رأيتها أشعر بحزنها وكسر قلبها.. وكان ذلك يمزّقني..

تحلّقنا حول مائدة العشاء.. كنا أربعة..

بالتأكيد معتصم كان بجسده ولكن عقله كان في مكان آخر..

سألت عن الأولاد.. فأجابتني هدى بأنهم قد ناموا فلديهم مدرسةٌ في الصباح الباكر.. وبدورها سألتني عن أحوالي محاولةً التخفيف من حدة الصمت..

أدركت محاولاتها واستجبت لها..

حكيت لهم عن بيت جدي.. وعن الحديقة..

وعن حفاوة جاري الذي تعهَّدني بموضوع التغذية..

فقد كان يرسل إلي طعاماً.. وبدأ الطعام يتراكم في الثلاجة إلى أن رجوته بحرارةٍ أن يتوقَّف حتى أنهي ما لدي..

قلت لهدى: أول يوم وصلتُ فيه وجدتُ الثلاجة نظيفةً وموصولةً بالكهرباء..

وبداخلها كيس خبزٍ و (قطرميزات) زيتونٍ وجبنةٍ ومكدوسٍ وبعض الخضار..

ضحكت هدى وهي تقول: لعلهم يرسمون عليك فأنت عريسٌ دسم..

ضحكت أنا أيضاً..

التفتُّ إلى سها وسألتها: ماذا تفعلين هذه الأيام؟؟

سألتني: أنا؟؟؟

بدا الانزعاج على وجهها.. وكأنها فوجئت بتحوّل موضوع الحديث إليها..

تابعتُ: نعم أنتِ.. قصدتُ: هل تكملين دراستك؟ أم التحقت بعملٍ ما؟

بدا الانتباه على وجه معتصم.. في حين كنا جميعاً ننتظر إجابتها..

وطال انتظارنا للحظات..

إلا أنها قالت في النهاية: ما أفعله وما سأفعله يعنيني وحدي..

قلت دون أن أفكر.. وكأنني أخاطب نفسي بصوتٍ عالٍ:

_ لا تتعلق الحياة بنا كأشخاص.. ولكنها تتعلق بالحياة نفسها..

سألتني بحدةٍ: ماذا تقصد؟؟

وجدت نفسي مضطراً لأشرح ما قلتُ بعد أن خرجت الجملة رغماً عني دون أن أفكر فيها..

قلت: كنت أحسب العالم متعلقاً بالأشخاص الذين أحبهم..

وحين تزوجت أمي ثانيةً شعرت وكأنها خانتني وفضّلت علي رجلاً آخر..

حينها عانقتني جدتي وهي ترتدي ملابس الصلاة

وقالت: هذا درسٌ قاسٍ يا زياد.. إما أن تتعلّمه الآن وإما علّمتك إياه الحياة بطريقة أصعب..

الحياة لا تقتصر على أشخاصٍ نحبّهم ونتعلّق بهم..الحياة أكبر من ذلك بكثير..

الحياة تشبه حديقةً يدخلها زائرونَ جدد يومياً.. ولكنهم يرحلون عائدين بعد ذلك..

ولا يمكننا أن نحتفظ بهم أو نخبّئهم أو نحرمهم من الغياب عن نظرنا..

بإمكاننا الاستمتاع بوجودهم معنا وتقبّل فكرة أنهم سيغادرون يوماً..

تابعت جدتي وهي تسألني: إذا متُّ أنا وجدّك فما الذي ستفعله أنت؟

قلت لها بيأس: سأقتل نفسي..

فقالت: لا.. حياتك ليست ملكك لترميها.. إنها هديةٌ يجب ألا تفرّط فيها..

لديك الكثير لتفعله بحياتك.. إنها أثمن بكثيرٍ مما تتصور..

كانت عيون الثلاثة تحدّق بي.. حين بدأت أشعر أنني تحدّثتُ أكثر مما يجب وأنني ربما تجاوزت حدودي مع سها.. وكشفت جانباً عميقاً من نفسي..

لماذا افترضت أنني أعرفها من كلام جمال المتكرر عنها لي..

في حين كانت تنظر إليّ على أنني شخصٌ غريبٌ تماماً عنها لا يعرف ما تمرّ به من أسى..

استأذنتُ بالانصراف خجلاً مرتبكاً.. وأنا أتذّكر قصة دستويفسكي: (الأبله).

* * *

(١٣)

اقترب موعدي مع أخي هيثم؛ فارتديت ملابسي ووقفت أمام المرآة أتأمّل مظهري برهةً.

سرعان ما ذهبتُ بعدها مشياً على الأقدام..

جوٌّ شتويٌّ رائعٌ أرسلت فيه الشّمس أشعّتها في حين كانت الريح الباردة تلسع وجهي باحثةً عن يديّ اللّتين كانتا قد اختبأتا في جيب معطفي..

وصلتُ إلى مكتب أخي وطلبت مقابلته على الموعد تماماً..

دخلتُ إلى مكتبه متوجّساً خائفاً..

استقبلني هيثم بترحابه المتحفّظ وصافحني..

وقف بجانبه رجل بدا أكبر منه بعدة سنواتٍ، عرّفني به: أخي الأكبر رياض..

سلّمتُ عليه وصافحته..

كانت سماء هناك جالسةً على أحد الكراسي بحزن.. لم تقف وتسلّم عليّ..

فألقيتُ عليها السلام..

- تفضّل.. اجلس وارتح..

هكذا قال هيثم وأشار إلى كرسيٍّ ورائي..

جلست وأنا أفكر.. كيف يمكن أن تكون اللّغة لدى الدمشقيين ستاراً يختبئون وراءه؟ أو لعبةً خائنةً يلعبونها؟

كيف يمكنني أن أرتاح؟ هذا سؤالٌ صعبٌ بالتأكيد..

انتشلني من أفكاري رياض.. وقال لي:

أخبرني هيثم أنك أتيت مؤخراً إلى دمشق..

هززت برأسي وأنا أنظر إليه..

بدا لي شخصاً عادياً تماماً كالأشخاص الذين نراهم حولنا يومياً.. حيث لا ترى أي تعبير على وجوههم..

تحسبهم أحياناً كلوحاتٍ صامتة..

في حين بدا تعبير وجه هيثم تشاؤمياً..

أما سماء فقد كانت تحاول الحفاظ على رباطة جأشها.. في حين كان وجهها مرآةً تعكس اضطرابها..

- أخبرني: ما أسباب قدومك إلى هنا؟

قلت له: بصراحة؟ السبب الرئيسي كان أن أراكم وأتعرّف بكم..

ابتسم وقال: مثلما توقعت تماماً..

يبدو أنك سمعت أن والدنا عندما توفيّ كان على قدرٍ لا بأس به من الثراء..

رفعت حاجبي مستفهماً..

تابع قائلاً: وربما أتيتَ تأخذ نصيبك..

نظرت إلى هيثم..كان يتفحَّصني بصمتٍ.. وكأنّه يحاول أن يتأكد من تعابير وجهي صدق التهمة التي وُجِّهت لي..

أما سماء فقد كان وجهها مظلماً تماماً..

سمعت صوته يأتي من بعيد: كم تريد؟

....

كم أريد.. وماذا أريد؟؟؟؟؟؟؟

أسئلةٌ صعبةٌ طرحها علي أخي الأكبر رياض..

أسئلةٌ لم أجرؤ على مواجهة نفسي بها..

وها أنا ذا أشعرُ أنني أمام أشخاصٍ غرباء عني مع أنهم أخوتي..

وأنا الآخر غريبٌ عن نفسي.. لا أعرف ماذا أريد..

هل جئتُ إلى دمشق طلباً للاعتراف بي؟؟

أم جئتُ أبحث عمن يهتمّ بي ويحبني؟؟

أم جئتُ أنبش في الماضي؟؟

ما هو كنزي الذي أبحث عنه.. وأين هو؟؟

ما هي غايتي من كل ما فعلته؟

ما الذي أفعله هنا؟؟

سؤال طرحته عليّ أمي قبل قدومي إلى هنا..

غضبتُ يومها من سؤالها هذا..

عندها قالت: زياد.. أنت لا تعرف ماذا تريد..

لم أشعر بمن حولي إلا عندما رأيت فنجان قهوةٍ وُضع أمامي..

اكتشفتُ أنهم كانوا جميعاً ينظرون إليّ ينتظرون جوابي..

قلت لنفسي: أنت مجنونٌ؛ تريد كل شيء؟؟

قلت بصوتٍ عالٍ دون أن أفكر:

أريد كلّ شيء أو لا شيء..

ارتفع حاجبا رياض.. وهو ينظر إليّ باستهزاء..

قال هيثم: لم أفهم..

قلت: إما أنني أخوكم فتمنحوني أخوّتكم.. أوْ لا شيء آخر..

قال رياض: وماذا عن المال؟

قلت له: مالك الخاص؟ لا أريد شيئاً منه.. أنا لست هنا للابتزاز أو للسرقة..

إما أن تمنحني أخوّتك..وبنوّتي لأبي أو لا..

لم أشعر بنفسي كيف خرجت من هناك..

ولكني بالتأكيد خرجت غاضباً كعاصفة.. محاولاً السيطرة على غضبي..

كنت أمشي وخطواتي تتنقل هناك على الإسفلت تحت المطر..

أجل، لقد أمطرت بعد أن كانت الشمس مشرقة..

ولكنه كان مطراً حزيناً.. فقد كانت السماء تبكي..

* * *

(١٤)

حين مشت قدماي نحو مكتب معتصم بشكلٍ لا إرادي.. كنت أفكر في الدقائق العصيبة التي مرت..

كان العرق يتصبَّب غزيراً على جبهتي حين دخلت مكتبه..

وأنا أشعر أنني في دوامةٍ لا أستطيع الخروج منها..

استقبلني بكآبةٍ وسألني عن أخباري.. فحكيت له ما حدث معي..

أحضر لي كوب ماء.. فسألته بدوري عن أخباره.. فأجابني بصمتٍ غير معهود..

بعد صمتٍ قصير تجرأت وسألته: ما حكاية المرأة التي أتت البارحة إلى هنا؟؟ رأيتك تنظر إليها وكأنها شبح..

بعدما أنهيت جملتي.. أحسست بمدى سخفي وأنا أفكر أن لا حقّ لي بسؤاله..

مع معتصم وأخته سها شعرتُ أنني تماديت كثيراً بتدخلي في شؤونهم..

فلم أكن فضولياً في العادة.. إنما عرفت ساعتها مدى حبي لهم وتعلقي بهم..

فأنا فضولي فقط فيما يختصّ بمن أحب..

ولكنني قرّرت ألا أتجاوز حدودي..

قلت متفادياً الموضوع الأصلي أو لأقل متهرباً: كيف حال جمال؟ هل حدّثك مؤخراً؟

ولكنه لم ينتبه لسؤالي فقد كان مطرقاً..

احترمت سكوته وعدم بوحه..

وخرجت من عنده شاعراً بوحدتي وعزلتي البائسة..

متجهاً إلى بيت جدي متدثراً هناك بلحافه ولوحاته وأسطواناته..

كيف يمكنك يا دمشق أن تشعريني هكذا بالأسى وأنا في أحضانك؟

أشعر بضعف السجين ووحشة الغريب فيك وأنت وطني..

ممسكاً بقلمي.. معانقاً دفاتري وكتبي.. بدأت أشعر بالأمان..

وقعت عيناي على قصة الخيميائي..

منذ شهرٍ كنت قد اشتريت الترجمة العربية لجمال كي يقرأها..

فوضع عليها بعض تعليقاته المرحة.. كان يسخر من تأملاتي وفلسفتي للأمور..

ويعتبر الدنيا لعبةً بسيطةً يمكن لطفل أن يفهمها..

سحبت القصّة وبدأت أعيد قراءتها مع هوامش جمال..

جرس الباب يدق.. متثاقلاً شاعراً بالبرد قمت ففتحت الباب في حين كانت الشمس تشرف على الرحيل..

كانت جمانة ابنة أبي محمودٍ تقف بالباب..

بحجابها الأبيض الناصع.. وابتسامتها الرائعة.. تحمل صينية طعام..

جمانة ذات السبعة عشر عاماً الطالبة في المدرسة الثانوية..

كلمة (مساء الخير) التي ألقتها كانت كأغنية ساحرة من أغانيك يا دمشق..

أشرق وجهي وأنا أراها تبتسم بشقاوةٍ وتسألني عن حالي.. وتناولني الصينية وهي تقول:

والدي يسلّم عليك ويقول: إيّاك إيّاك أن تتباطأ في التهام الطعام فهو ساخن..

شكرتها بعمقٍ وأنا أشعر بالامتنان..

هكذا يا دمشق تناورينني وتتلاعبين بي.. تغلقين في وجهي باباً.. ثم تفتحين آخر مواربة..

سلمت يا دمشق لأهلك..

(١٥)

اتصلت بي أمي وصوتها يختنق بدموعها..

زياد أحقاً ستقضي رمضان بعيداً عني؟؟

قد صار عمرك ثمانيةً وعشرين عاماً.. قضينا ثمانيةً وعشرين رمضاناً معاً..

توسّلت إلي: عد يا بني فلقد اشتقت إليك كثيراً..

لم أحتمل صوتها الباكي فحاولت أن أحوّل تفكيرها إلى موضوعٍ آخر..

لطالما كانت أمي هي طفلنا المدلل أنا وجدي وجدتي..

كنت أشعر أنني أقرب إلى أن أكون أخاها الأكبر من أن أكون ابنها..

قدوم رمضان وصوتها جعلاني أشعر برغبةٍ في العودة..

سألتها عن إخوتي لأنني أعرف أنه موضوعها المفضل.. قالت:

عصام يسأل عنك.. أما نهى فهي تتدرب على مسرحية المدرسة..

أنهيت المكالمة وأنا أسمع جرس الباب يدق..

ربما كان العم أبا محمود وربما كانت جمانة..

هكذا فكرت ولكنني فوجئت بمعتصمٍ لدى الباب..

استقبلته ودخلت المطبخ لأضع القهوة على النار..

وشعرت بخطواته تلحق بي..

سحب كرسي المطبخ وجلس عليه مستغرقاً في التفكير..

ساد الصّمت.. ولم يقطعه سوى صوت القهوة وهي تصبّ في الفنجانين..

جلست أمامه أتأمل عينيه المترددتين في البوح..

عندما أنهى فنجانه سألني: أنت تعرف أنني قضيت عشر سنواتٍ من عمري في المعتقل..

كنت في الثامنة عشرة من عمري طامحاً مندفعاً إلى الانتساب إلى معهد الفنون الجميلة للرسم.

فقد كان الرسم هوايتي.. وقد شجعني أحدهم قائلاً لي بعد رؤيته رسوماتي إنني سأصبح رساماً مشهوراً..

ولكنني اعتقلت بسبب صديقي وجاري الذي ليس لي أيّ علاقةٍ بمعتقداته..

هناك في السجن تعرفت إلى كثيرٍ من الناس ممن كانوا معي في الزنزانة.. وممن كانوا في زنازين

أخرى.. كان ممنوعاً علينا ذكر أسمائنا.. فنحن عبارة عن أرقام..

بعد خمس سنواتٍ من سجني نقلت إلى مكانٍ آخر وزنزانةٍ أخرى..

تعرفت بالرقم تسعة وثمانين..

كان رجلاً في الخمسين.. قوي الشخصية.. عالي الثقافة..

وكان الجميع يحترمونه حتى السجّانون..

خلال ساعات سجننا العصيبة هناك أصبحنا صديقين..وبدأ يسمع القرآن ثم صار يحفظه..

كان النوم يجافيني أحياناً.. أمّا هو فنادراً ما رأيته نائماً..

بدأ يحكي لي قصته:

كان أباً لطفلةٍ صغيرةٍ.. وكان له اتجاهه السياسيّ الشيوعيّ..

بعد ذلك تعرف على عدة سجناء متدينين..

حكيت له قصتي أنا أيضاً.. وصرنا مصدر عزاءٍ بعضنا لبعض..

وبدأت أحفّظه عدداً من الآيات القرآنية..

كنت شاباً أبحث عن حنان أب.. وكان أباً يعاني من فراق ابنته..

علمت أنه اعتقل منذ كان عمرها خمسة أعوام..

كان يحكي لي دائماً عنها..

وعندما قرروا إعدامه صرّح لي باسمها: عروبة النجار..

أوصاني ليلة إعدامه أن أبحث له عنها وأسلّم عليها..

وحين أُخذ ليُعدم كان ثابتاً كالصخر..

ارتعش صوت معتصم وهو يقول:

لمّا سمعت صوت الرصاصات وهي تنثال عليه أغمي عليّ من فرط حزني وكأنّ والدي عاد للحياة ثانيةً ثم أعدم..

حين خرجت من السجن حلفت ألا أعود..

وقطعت كلّ صلةٍ لي بالماضي..

حاولت أن أعيش بشكلٍ طبيعي وكأنني لم أكن في السجن يوماً..

ما زالت الكوابيس تطاردني كلّ ليلة..

ما زلت أستيقظ هلعاً..وأنا أظنّ أنني أسمعهم قد وصلوا باب بيتي ليعيدوني إلى السجن

أتلمّس أولادي كل ليلةٍ لأتأكد هل أعيش معهم وهماً أم حقيقة..

أقبّل وجه زوجتي خائفاً من النوم والاستيقاظ في مكانٍ آخر..

حسبت أنني متماسكٌ وأن حياتي صارت أشبه بالطبيعيّة..

وها أنا ذا أكتشف أن الماضي يطاردني بضراوة..

وها هي ذي عروبة النجار جاءت بقدميها إليّ بدلاً من أن أذهب أنا للبحث عنها...

* * *

(١٦)

غداً هو أول يومٍ في رمضان..

البارحة بعد أن حكى لي معتصم قصّته.. قضى بعض الوقت مكتئباً عندي..

واليوم بدأتُ أحزم حقائبي.. بعد أن فكرت أن لا ضرورة لبقائي أكثر من ذلك..

بين طياتك يا دمشق أجد الحزن والأسى..

لم كنت قاسيةً على ساكنيك؟

لم قهرت أحبّاءك؟

لم يعيشون بين أضلعك حزانى؟

منذ شهرٍ وأنا هنا..

كان لديّ حلمٌ أن أجد كنزي..

لكنني أشعر بالضياع..

لم أجد كنزي هنا..

لم أجد شيئاً هنا.. سوى نفوسٍ كسيرةٍ حزينة..

قطع تأملاتي صوت الهاتف..

كان معتصم يدعوني إلى فطور غد..

رفضتُ ولكنه حاول إقناعي..

فقلتُ له: أولّ يومٍ في رمضان هو فرحةٌ لكلّ المسلمين؛ تجتمع فيه العائلة على الفطور.. سامحني، لا أستطيع..

في الحديقة.. كنت أحاول أن أملأ عيني بمنظرها كي لا أنساها..

حدائق مونتريال وغاباتها أكثر خضرةً وتنوعاً.. ولكنك الأجمل بالتأكيد يا نافذةً على دمشق..

من الشرفة التي فوقي وقف أبو محمود يسلّم: كل عام وأنت بخير، تعيش لأمثاله إن شاء الله..

شكرته فقال لي: أنت مدعوٌّ لدينا إلى الفطور، الغد أول يومٍ في رمضان..

بدأت محاولة الرفض لكن الخالة أم محمود خرجت ممسكةً غطاء رأسها مستعجلةً لتؤكّد كلام زوجها: لا يصحّ، ستأتي لتفطر عندنا، كنت من رائحة الحبايب والآن صرت منهم..

حاولت إعادة الرفض مع الشكر، لكن جمانة خرجت إلى الشرفة هي الأخرى وهي تؤكد كلام والدها ووالدتها..

في عيونهم ترحيبٌ عميقٌ وحفاوةٌ صادقةٌ أخجلتني بطريقةٍ عجزت مفرداتي معها عن الرفض..

هززت رأسي بالموافقة..

من النكران أن ترفض حفاوة الكريم.. فعيبٌ أن تحطِّم حفاوته على صخرة جحودك..

بل استمتع بالامتنان بعطائه..

كنت أنتظر بيأسٍ شخصاً آخر ليدعوني إلى فطور أول يوم.. ولكنه لم يتصل..

* * *

(١٧)

اليوم هو أول يومٍ من شهر رمضان

في طريق عودتي من شركة الطيران بعد أن حجزت تذكرةً بعد أسبوعٍ إلى مونتريال..

تمشيت قليلاً..

بدت لي دمشق مختلفةً في رمضان.. وكنت أنا مختلفاً أيضاً..

من لم ير دمشق في رمضان.. لا يعرف كيف يمكن أن تنقلب المدينة إلى مدينةٍ تعجّ بالحركة..

تتجهّز لوقت الفطور..

للأطعمة التي يمكن أن تقدّم..

لصلاة التراويح التي يجب القيام بها..

الناس في دمشق تظهر عليهم آثار الصيام وبسرعة..

يبدأ نهارهم بسماع القرآن.. حيث تسمعه في أغلب المحلات ومعظم سيارات الأجرة.. ثم يبدأ صبرهم ينفد..

فتكتشف أن معظم الدمشقيين صائمون وعصبيّون..

يتحوقلون وتسمع من أفواههم جملة: اللهم إني صائم.. تخرج عادة إما بغضبٍ أو بصبرٍ أو برضا..

يتناثر على جوانب الطريق بائعو الناعم والحلويات.. وخبز رمضان الذي كنت دائماً أشتهي أكله في رمضان..

تشعر وكأنك في حضن مدينةٍ صائمةٍ تجهّز نفسها للفطور منذ أذان الظهر..

روائح الطبخ الدمشقي تتسلّل من نوافذ البيوت..

والمساجد تغصّ بالمصلّين عند الأذان..

لم أشعر بنفسي إلّا على باب المسجد..

لم أكن ممن يحافظ على صلاته كثيراً.. ولكنني كنت أداوم عليها في رمضان..

جدي علّمني الصلاة.. وكان يفرح كثيراً عندما يراني أصلّي..

أما جدتي فكانت الصلاة بالنسبة إليها رحلةً إلى السماء حيث تحلّق بعيداً..

لم نكن نجرؤ على التحدث أمامها أو مناداتها في أثناء الصلاة..

وجدت نفسي في صحن جامع الزهراء..توضأت ووقفت بين المصلين..

جذبني الرجل الذي عن يميني لألتصق به.. في

حين التصق بي شخصٌ آخر عن يساري كان كتفي يحتكّ بكتفيهما في أثناء الصلاة..

وبدأت أشعر بالتضاؤل وكأنني ذرةٌ صغيرةٌ من مجموعةٍ كبيرةٍ من الناس..

كلهم يدعون.. كلهم يبتهلون..

كلٌ لديه مشكلته التي يشكيها إلى ربه..

كلّهم جاؤوا لهدفٍ واحدٍ هو الصلاة..

لم أشعر هكذا منذ زمن..

كان رمضان دائماً يأتي كلّ سنةٍ ليغسل قلبي في أول يوم..

دموعي انسابت على وجهي.. وقد زال عني كلّ شعورٍ بالوحدة..

كنت أشعر بالامتنان لربي على كل لحظةٍ عشتها..

وعلى هذه اللّحظة بالذات التي اختلطت بها بالآخرين..

خرجت من المسجد وأنا أشعر بطاقةٍ وصفاءٍ هائلين..

في بيت أبي محمود جلست إلى الفطور..

استقبلني بحفاوةٍ.. وأجلسني بجواره.. وبدأ يسألني عن أحوالي ودراستي وجدي وجدتي ووالدتي وإخوتي..

العمّ أبو محمود لطيفٌ وطيب القلب..

هنالك أناسٌ تجلس أمامهم فتشعر بهيبتهم إلى درجةٍ تحبس فيها أنفاسك مثل جدي.. وهنالك أناسٌ تشعر براحتك أمامهم وتعرف أنهم سيحبونك مهما فعلت..

والعمّ أبو محمود كان من النوع الثاني..

كان يصبّ لي الطعام في صحني كل دقيقتين..

وبدأت أشعر بالامتلاء..

وبدأت أعتذر منه وأطلب منه التوقّف عن سكب الطعام وهو يقول لي: كُلْ قرص الكبة من صنع خالتك أم محمود... و...

أما جمانة فكان وجودها يخلق جواً من المرح..

قالت لي: ذق هذه الحلوى صنعتها أنا.. ذقها آه ما ألذها..

لم أجرؤ على الرفض.. كنت مسحوراً بوجودها تتحرّك أمامي كالفراشة..

لو كان لي أختٌ مثلها... ربما تشاجرنا طوال الوقت، ولكن بالتأكيد كانت أضافت كثيراً من السعادة إلى حياتي..

اصطحبني أبو محمود بعدها إلى المسجد لصلاة العشاء والتراويح..

حين خرجنا من المسجد كنت شاعراً بجمال الحياة..

سبحانك يا الله!! كم تغمرني بكرمك وحفاوتك..

شعرت أن دمشق كلها تضمّ أهلها إلى صدرها في رمضان..

كلٌّ يسلّم على أبي محمود وعليّ في الطريق..

الأنس ينبعث في الطريق من كل مكانٍ فيك يا دمشق..

النساء اللواتي خرجن من المسجد معظمهن يلبسن أردية الصلاة.. ويبدون كملائكةٍ تمشي على الرصيف..

عدت إلى منزلي.. فوجدت الهاتف يرن..

سألني معتصم: أين كنت؟؟ فأخبرته..

قال: تقبل دعوة أبي محمود ولا تقبل دعوتي..

حسناً لن أغفرها لك إلّا إذا جئت ففطرت عندنا غداً..

حين ينهال عليك الكرم من كل جانب.. لا تملك إلا أن تستمتع بكل لحظةٍ، فهي ستختفي ولن تعود، ولكنك تبقى تذكرها مدى حياتك..

* * *

(١٨)

حين كنت عند معتصم في مكتبه.. أسرّ إليّ بصوتٍ منخفضٍ وكأنّه يحدّث نفسه..

وقال: لا أعرف كيف مرّت هذه الليلة عليّ..

كنت نائماً وشاهدت في نومي أنني أركض هارباً وهم يتبعونني..

أحاول الاختباء فأسمع قعقعة أحذيتهم القاسية ترتطم بالأرض تلحق بي..

في اللحظة التي شعرت فيها بالرعب الشديد أفقت على يد زوجتي تهزّني وتقول: معتصم أفق.. إنه كابوس..

كنت أسبح في قطرات عرقي لاهثاً خائفاً..

قمت من سريري..

هدّأتْ هدى من روعي ككلّ ليلة.. وأعطتني كوباً من الماء وهي تقرأ المعوّذات وتمسح على رأسي..

يبدو أنني سأعيش بقية عمري خائفاً لا أكاد أنام إلا وأرى الكوابيس..

أصبحت أكره وقت النوم..

أطلق تنهيدةً قويةً ثم تابع كلامه قائلاً: بعد ثلاثة أيام ستأتي عروبة النجار لتأخذ اللوحة التي طلبتها منّي .. أريدك أن تكون موجوداً الساعة الواحدة ظهراً..

هززت له رأسي موافقاً..

في طريقنا إلى منزله.. توقّف معتصم عدة مراتٍ ليشتري كميةً هائلةً من الحلويات المتنوعة فطلبت منه ألا يكلّف نفسه.. لكنّه قال: بالإضافة إلى تشريفك اليوم.. لدينا مناسبةٌ هامةٌ جداً لنحتفل بها.. وهي صيام ابني عادل أوّل مرةٍ في حياته..

ابتسمتُ وقلتُ: أنتم أيضاً تحتفلون بهذه المناسبة..

تذكرتُ جدي.. أمدّ الله في عمره..

حين عاد معتصم إلى السيارة حاملاً صينية الحلوى..

أغلق الباب وراءه ثم نظر إلي بعمقٍ.. وتنهّد..

لم يشغّل السيارة.. كان يبدو أنه يفكر بإخباري بأمرٍ ما ولكنّه متردد..

ربتُّ على كتفه.. فنظر إليّ بارتباك.. وقال:

أريد أن أطلب منك خدمة.. طلبوني لمقابلة العقيد غداً في الفرع..

سأذهب.. أريدك أن تنتظرني.. فإن لم أعد..

صمت للحظات وتنهد محاولاً حبس دموعه.. ثم تابع بصوت مرتعش: اعتنِ بهدى وسها والأولاد إلى حين عودة جمال..

ساد الصمت برهةً ثم شغّل السيارة ومضينا إلى بيته..

تغير وجهه الحزين هناك وهو يصفّ الحلويات في صينيةٍ كبيرة..

وحين أذّن المغرب حمل طفله ودار به عشر مرات في أروقة منزله.. ثم فاجأه بصينية الحلويات..

صفقنا جميعاً وقبّلنا الصغير.. وجه معتصم كان ممتلئاً بالفرح..

أهو ستارٌ لخوفه؟.. أم حزنه.. أم ماذا؟؟

في تلك الليلة رأيت ابتسامة سها تشعّ من وجهها لأول مرة..

أعطيتها قصة الخيميائي على استحياء وقلت لها: هذه نسخة جمال أريد أن أعرف رأيك بها..

خرجت متجهاً إلى شركة الطيران لأؤجّل سفري أسبوعاً آخر..

* * *

(١٩)

على السّحور أفقت على صوت أبي محمودٍ يقرأ القرآن.. متسللاً إليّ عبر النافذة..

قمت وتسحَّرت.. وخرجت قاصداً صلاة الفجر في المسجد..

استقبلني المسجد فاتحاً ذراعيه وضمّني.. جلست هناك تحت القبّة..

انتابني شعورٌ غريبٌ بالارتياح وكأنني في بيتي..

هناك في المسجد كنت أشعر كغريبٍ عاد إلى وطنه أخيراً..

كنت أذهب إلى المركز الإسلامي في مونتريال أحياناً وبالذات في رمضان.. وأحياناً أخرى إلى المساجد الصغيرة هناك..

ولكن كان هناك شيء مفقود..

كنت أشتاق هناك إلى الصّفوف المتراصّة..

إلى هذا الشعور الذي يجعلك تحسّ أنك ضمن أسرتك..

كان هناك خلافٌ دائماً بين الشيعيّ والسنيّ.. والصوفيّ والسلفيّ..

أذكر مرة أنني كنت في شوارع مونتريال أحضر بعض الأغراض من السوق..

واكتشفت مسجداً صغيراً في أحد الأبنية..

شعرت بالفرح.. ودخلته..

خلعت حذائي وبدأت أعبّئ رئتيّ من رائحة المسجد..

تلك الرائحة؛ رائحة السجاد مختلطةً برائحة الرطوبة..

شابٌ أشقر الشعر ذو لحيةٍ طويلةٍ جداً كان هناك واقفاً على بابه..

نظر إلي بازدراء.. إلى وجهي الحليق.. إلى ملابسي الأنيقة..

تجاهلته وشرعت في الصلاة..

وكنت في أثناء ذلك أشعر بنظراته المسلّطة عليّ تحرق ظهري..

وبدأت أشعر بالضيق..

بعدها لم أدخل أي مسجدٍ هناك في مونتريال..

كنت أرافق جدي إلى الباب فقط لأوصله..

في الصيف الذي يليه.. عندما ذهبت إلى إسطنبول.. عاد إليّ عشقي للمساجد.

قضيت جزءاً كبيراً من إجازتي هناك وأنا أسوح في المساجد..

كان ما يُقطِّع قلبي في تلك الفترة.. وجود تلك المساجد الرائعة الخلابة..

ولكنها خاويةً إلا من قلّة..

كنت أحياناً أقضي عدة ساعاتٍ في أحدها.. وأنا أرى معظم زوارها من السائحين..

والآن عدتُ إلى دمشق لأعشق مساجدها وأرى فيها أناساً مثلي يعشقونها أيضاً..

* * *

(٢٠)

في الصباح استيقظت وأنا أشعر بالمرض، توقعت أن أتحسّن بعد عدّة ساعات..

كنت أفكّر في كل ما جرى لي..

وخطر في ذهني خاطر: لا شيء يمكن أن يجبرني على البقاء هنا..

فحين تكون وحيداً تحنّ إلى حضن أمك وضجّة إخوتك..

تحنّ إلى رتابة يومك العادي.. تحنّ إلى بوّاب الجامعة التي تدرّس فيها.. وإلى السّاقي الذي يقدّم لك قهوتك اليومية.. والجريدة التي تشتريها كل صباح..

ربما كنت لا أنتمي إلى هذا المكان..

لكن يجب أن أبقى وأنتظر ما سيحدث مع معتصم..

كلّمت معتصماً قبل ذهابه..كان يبدو لي هادئاً..

طلبت منه الاتصال بي عند عودته..

فقاطعني قائلاً: لن أوصيك بهدى وسها والأولاد..

كنت أفكر..لم يتبقّ معي كثير من النقود..وسيطول بقائي هنا أسبوعاً آخر..

ويجب أن أتابع كتابة مقالاتي عن طريق الإنترنت..

لا بدّ إذن من أن أشغّل حاسوبي المحمول الذي ظلّ مطفأً خلال شهرٍ كامل..

هناك كثير من المواضيع التي يمكنني الكتابة عنها..

يجب أن أعود لعملي..

سألت العمّ أبا محمود: هل لديكم خدمة الإنترنت؟

أجاب: تعال لتسأل جمانة.. فهي تفهم أكثر مني بهذه الأمور..

بعدها حاولت تمضية الوقت بكتابة بعض المقالات للمجلة..

وعندما أنهيتها.. كان الوقت ما يزال مبكراً..

كنت أنتظر رنين الهاتف..

حين حلّت الساعة الثالثة ظهراً ولم يتصل معتصم.. لم أستطع التحمل أكثر من ذلك فارتديت ملابسي وتوجّهت إلى منزله..

كانت هدى تبدو بقمّة القلق..

لم تستطع الجلوس، وكانت تذرع الأرض جيئةً وذهاباً..

أما سها فلم أرها؛ فقد كانت مع الأولاد في الداخل..

مرّ الوقت ونحن بغاية القلق..

بدت تلك الساعات التي غابها أيّاماً..

وأخيراً حين سمعت أذان المغرب.. دخل معتصم من الباب..

لم يكن يبدو بخير.. كان ساهماً..

قفزت هدى من مكانها مرحّبةً به..

تحلّقنا حوله نسأله عن أخباره..

أدركت أنه لن يحكي شيئاً اليوم..

فاستأذنت في الانصراف..

ولكنه لم يقبل أن أذهب حتى أفطر معهم..

كانت عينا هدى متعلّقتين بعينيه.. ونحن نتناول الطّعام..

استأذن في الدخول لغرفته ليرتاح.. دون أن يكمل طعامه..

فاستأذنت أنا أيضاً في الذهاب إلى بيتي..

لكن سها رغبت في التحدث إليّ..

بقيتُ وحدي في غرفة الجلوس؛ فقد ذهبت لتعدّ القهوة لكلينا..

في أثناء غيابها كنت أفكر في هذا المنزل الذي يضمّ بين جنباته أسرة..

وكيف يصبح المنزل بيتاً ينقذ صاحبه من التشرد والشعور بالوحدة.. يصبح حضناً..

شتّان بين البيت والمنزل..

لطالما سمعت جملةً علقت في ذاكرتي منذ طفولتي: البيت بسكّانه لا بأركانه..

عادت سها مع صينية القهوة.. وشعرت بالحرج وأنا أجلس معها وحدي لأول مرة.. وكأنني مراهقٌ في السابعة عشرة من عمره..

بدأت تحدثني بجرأةٍ لم أعهدها.. جعلتني أخرج من حرجي..حيث قالت:

تأثرت كثيراً بالقصة التي أعطيتني إياها..

قصة البحث عن الكنز..

ومن أجمل ما فيها: تعليقات أخي جمال عليها.. شعرت وكأنه يحدثني..

اشتقت إليه.. اشتقت إلى الأيام التي كنت فيها صبيّةً يحوطني أخواي بالرعاية..

دارت بي الدنيا دورتها المفزعة.. ولم أجد نفسي إلا عائدةً مع طفلتين إلى بيت أخي..

ما زلت أشعر بالحنين إلى تلك الأيام.. أيام الصبا..

مع أنني الآن صرت مسؤولةً عن ابنتيّ وحدي..

لم أجرؤ على اختراق صمتها الذي دام لدقائق..

ولكنها عاودت الحديث:

قد يتبادر إلى ذهنك سؤالٌ تخجل من طرحه علي..

ما الذي دفعني إلى طلب الطلاق.. فكما تعلم زوجي حاول إقناعي بالبقاء لديه بعد زواجه بالثانية؟

شعرت بالخشوع أمام جرأتها في طرح مسألةٍ خاصةٍ كهذه معي..

ثم تابعتْ وهي تنظر إليّ مباشرة:

- كنت كلّ حياته.. لقد أحبني حتى أقنعني بالزواج به..

ماذا كان دافعي إلى الزواج؟ الآن أسأل نفسي..

إنه دافع كلّ فتاةٍ على الأغلب..

وهو وجود شخصٍ في حياتي يعشق الأرض التي أمشي عليها..

فما الذي يمكن أن يغري فتاةً لم تتجاوز العشرين من عمرها بتحمّل مسؤولية عائلة.. سوى وهم أن تكون حباً كبيراً لرجل؟

تعيش معه كالأميرة.. يمكث قربها لدقائق وساعات وهو يعبّر لها عن حبه..

وعندما يغادر يبقى على انتظار رؤيتها مجدداً؟

مرّ الوقت.. وبدأت أشعر أن المسرحية التي تخيّلتها كانت وهماً..

تأقلمت كمعظم النساء..

وعرفت ساعتها أن من واجبي تحمل مسؤولياتي كأم..

ظهرت على وجهي بعض التجاعيد، وبدأت أشعر بسعادة الأم وهي ترى ابنتيها تكبران أمامها..

لكنه لم يعد يرى فيّ تلك الفتاة التي تنسى العالم حين ترى زوجها..

اختفت تلك الفتاة الحلوة الممشوقة، وحلّ محلها امرأةٌ لديها بعض التجاعيد.. وبعض الكيلوغرامات الزائدة.. وبعض الشعيرات البيضاء..

أصبحت دميةً قديمة..

كنت صعبة المنال.. تعذّب حتى أقنعني بالزواج..

ثم صرت لديه.. أراد أن يسعى إلى صيدٍ آخر..

واسودّت الدنيا في عينيّ.. وأنا أراه أمامي كصرحٍ ضخمٍ فارغٍ من الداخل..

الآن أسأل نفسي: ما هو كنزي؟..

إن أي بشرٍ لا يستحق لا العيش ولا الموت من أجله.. ولا يمكن أن يكون كنزاً..

لقد تعلّمت الدرس القاسي حين تحسب شخصاً ما كنزك..أو كلّ اهتمامك في الحياة.. ثم تكتشف أنه تركك ومضى..

هل يمكن أن تكون ابنتاي هما كنزي؟؟ وماذا سأفعل عندما تتركانني عندما تكبران؟..

بدت جملتها الأخيرة التي قالتها على شكل سؤال.. وكأنها تخاطب نفسها..

وعيناها كانتا تنظران إليّ بتساؤل..

كنت أفكّر في كل ما قالته، وبالذات الجملة الأخيرة التي كانت ترنّ في أذني.. وأنا متوجّه إلى منزلي..

وأفكّر كيف يمكن أن تجد كنزها؟؟

كيف يمكن أن نعتبر أن شخصاً ما هو كنزنا أو غايتنا في الحياة.. في حين أن من الممكن أن يتركنا بموتٍ أو رحيل؟؟

بماذا ستستثمر حبّك يا زياد؟؟ أو بمن ستستثمر؟؟

سؤالٌ صعب.. ما زال يتردد في أعماقي..؟

لطالما اعتبرتُ حبّ الآخرين لي كنزاً..

ولكنني هويت إلى الجنون حين فعلت ذلك..

كانت نادية كنزي في يوم..

وفي اليوم الذي يليه.. كانت أبغض شخصٍ إليّ..

ها قد عدت ثانيةً إلى التفكير في جرحي القديم..

هابطاً درجات منزلي وأنا أخرج مفتاحي من جيبي..

فوجئت بشخصٍ مظهره غريب يقف بانتظاري.. ونظرت إليه بتساؤل..

سألني: أأنت زياد الصافي؟

- نعم.. هكذا أجبته..

قال: لديك مراجعةٌ للفرع غداً في التاسعة صباحاً..

قلت له: عفواً لم أفهم..

قال: تعال إلى فرع أمن المزّة في التاسعة صباحاً.. واطلب مقابلة العقيد حمدان فهو ينتظرك..

في حين كنت أحاول استيعاب ما قاله كان قد اختفى كوهمٍ أو سراب..

وبدأت الأفكار تتخبط في رأسي..

* * *

(٢١)

حالما أغلقت باب البيت ورائي سمعت خطواتٍ مسرعةً على الدرج..

ثم رنّ جرس الباب.. كان أبو محمود واقفاً هناك يلهث..

دخل وأغلق الباب خلفه..

سألني: من كان ذلك الرجل؟

أخبرته بما حدث..

بدا الاضطراب على وجهه.. وبدأ يحوقل ويبسمل.. وهو يقول: ماذا سنفعل الآن؟

قلت: لا تخف يا عم إن شاء الله لن يحدث إلا الخير..

سأحضر جواز سفري الكندي.. وأوراقي..

لا يجب أن أخاف فأنا لم أفعل شيئاً..

تنهّد أبو محمود بحرقةٍ وقال: آه يا بني.. كثيراً ما ذهب أناس مثلك لم يفعلوا شيئاً ولم يعودوا..

صمتنا كلانا..

وبعد لحظات قلت له: هل بإمكاني استعمال الإنترنت من بيتكم لأرسل رسالةً إلى جدي؟؟

سبقني إلى فوق.. حملت جهازي المحمول ولحقت به..

بدأت جمانة تحوم حولي بفرحٍ ظاهرٍ وأنا أشغّل الإنترنت..

لأرسل الرسالة المفصلة بما حدث وسيحدث غداً..

بدأت أشعر بالاضطراب وعدم التركيز من تجوّلها قربي فطلبت منها كأس ماء..

ولكنها سارعت لتعدّ شاياً وهي تعتذر عن كونها نسيت القيام بواجب الضيافة..

دخل أبو محمود حين كنت وحدي في الغرفة.. وقال لي: أعطني رقم هاتف إخوتك من أبيك..

فقلت له: ليس هناك من داعٍ لإخبارهم بشيء..

ولكن من أين تعرف أنّ لديّ إخوةً من أبي؟

قال: جدك حكى لي..

كنت دائماً أتقصّى له عن أخبار عدنان الصافي رحمه الله..

ولكن منذ موته منذ عشر سنوات لم أعد أعرف أخبار عائلته..

اجتاحني صمتٌ حزين.. ولكنه عاد فقال:

لا تخف فلن أكلّمهم إلا إذا تأخرتَ في العودة..

لأنني رجلٌ عجوز ولا أعرف أحداً من المسؤولين ولن أستطيع مساعدتك بشيء..

أعطيته رقم أخي هيثم وشربت شايي ونزلت..

لم أنم قبل السحور.. كانت أفكاري تأخذني في دوامات..

أهكذا يا دمشق تديرين لي وجهك الآخر؟؟

أهكذا يا دمشق ترمينني في الجبّ؟؟

كيف طاوعتك نفسك يا دمشق؟؟

هل اكتفيت أن تكوني بسمة الحزن؟؟

تطلقين عنان أحزانك لي وتغرقينني داخلها..؟؟

هل من الممكن أن تكون نهايتي داخل زنزانةٍ من زنازينك؟؟

توقعت أن يحدث أي شيء وأسوأ ما يمكن حدوثه..

ولكنني لم أن أتوقع أن تذهبي بي بعيداً هكذا..

رن الهاتف قبل السحور بقليل..

كان صوت الرنين قد أفزعني في هذا الوقت المتأخر..

كان جدي.. لم نتحدث طويلاً..

بل لم أعرف ما قلته له.. فقد كنت مشوشاً..

طمأنني وأخبرني أنه سيقوم باتصالاته..

طلب مني ألا أخبر والدتي.. فهي متعبةً قليلاً..

وستقلق كثيراً، وهذا لا ينفع صحتها، أخبرته أنني لم أكن أنوي إخبارها..

أغلقت السماعة وأنا أشعر أنني على حافة الهاوية..

* * *

(٢٢)

كانت الساعة الثامنة والنصف صباحاً عندما أغلقت الباب خلفي خارجاً من بيتي.. رأيت أبا محمودٍ يتشاغل بسقي الأشجار..

رمقني بطرف عينه وأنا خارجٌ وهو يقول: الله معك يا بني..

كان وجهه مصفراً وفيه تعبير خوفٍ شديدٍ..

بحثت عن سيارة أجرة.. فالوقت ما زال مبكراً والشوارع بدت لي فارغةً..

وجدتها بصعوبةٍ.. كان سائقها يستمع للقرآن الصباحي..

شعرت بالراحة وأنا مستقر على المقعد بجانبه..

بعد عدة دقائق سألني: إلى أين؟ قلت: إلى فرع أمن المزة..

لم ألحظ ما حدث لوجهه من تغيّرات ولكنه أوقف صوت المسجّلة..

وران علينا صمتٌ ثقيل..

حين وصلت إلى هناك.. وسألته: كم تريد؟

لم يقبل أن يأخذ أجرةً وتركني هارباً..

كان ذلك مثيراً للغثيان بالنسبة إلي..

وماذا بعد يا دمشق..؟

دخلتُ الفرع.. وجوهٌ مرعبةٌ هناك تتميّز بشكلها الغاضب.. الشرير..

سألت على الباب: العقيد حمدان من فضلك..

أشار لي شخصٌ ما إلى البهو، وطلب مني الانتظار، فبقيت هناك واقفاً..

مرّ كثيرون أمامي تميّزت وجوههم بأحد الشكلين.. إمّا الخوف وإما الشرّ..

في مكان كهذا لا يمكنك رؤية سمةٍ ثالثة..

بعد مدّة قاربت الساعة.. وقف أمامي رجلٌ وسألني ماذا أفعل هنا؟؟

أجبته: أنا زياد الصافي.. لدي موعدٌ منذ ساعةٍ مع العقيد حمدان..

قال: أين كنت؟ العقيد ينتظرك.. تعال من هنا..

أدخلني إلى غرفةٍ فارغةٍ فيها مكتبٌ وعدة كراسٍ..

طلب مني الجلوس على أحدها وتركني وحدي.. وهو ينظر إليّ بغرابة..

مرت عشر دقائق على الأقل..

دخل بعدها الرجل نفسه وساقني إلى غرفةٍ أخرى.. فتح لي بابها ودفعني إلى داخلها ثم أغلق الباب خلفي..

كانت غرفةً فخمةً..

جلس وراء مكتب ضخم رجل ذو شاربين كبيرين..

سألني عن اسمي فأجبته.. طلب مني الجلوس..

وبعد أن قرأ ورقة أمامه سألني عن اسم أمي وأبي..

ثمّ سألني: ما الذي دفعك إلى القدوم إلى دمشق بعد هذه المدة؟..

لم لَم تأت قبلاً؟..

قلت له: لا يوجد سببٌ معين.. أردت فقط أن أتعرف إلى بلدي الأصلي..

قال: نسينا أن نضيفك.. ماذا تشرب؟

قلت له: لا شيء، شكراً، فأنا صائم..

قال لي بخبث: ألنت متدين؟؟

قلت له: ليس كثيراً..

سكت قليلاً وأمسك بالورقة التي أمامه وسألني: وما علاقتك بمعتصم؟

قلت: تعرفت عليه منذ شهرٍ حين أتيت إلى دمشق.. وأنا معجبٌ باللوحات التي يعرضها في مكتبه..

ألقى علي محاضرةً في أهمية التحقيقات التي يجرونها..

وكيف أنها تحمي البلد والمواطن من الإرهابيين والمجرمين.. وكل من تسوّل له نفسه أن يعبث بأمن الوطن والمّواطن..................

ثم قال: ستبقى لدينا ربع ساعة لنتأكد من إجاباتك كلّها وهذه مجرّد إجراءاتٍ شكلية..

ضغطِ زراً فأتى بعدها رجلٌ إلى الغرفة وقادني إلى الغرفة الأولى وتركني هناك..

مر الوقت طويلاً عليّ.. ولكني كنت أفكر بعدد الناس الذين دخلوا هذه الغرفة..

وماذا حدث لهم بعدها..

وبدأ خيالي يرسم حبكةً طويلةً وبدأت أنسى العالم من حولي..

ككل مرةٍ أفكر فيها بروايةٍ أو قصةٍ أكتبها..

عندما دخل أحدهم الغرفة بعد بضع ساعات.. نظر إليّ ثم خرج..

كانت الساعة قد قاربت الثانية ظهراً..

فكرت ساعتها أن أقوم لأصلي الظهر معتمداً في معرفة اتجاه القبلة على بوصلة ساعتي

ولكنني أحجمت وفضّلت أن أنتظر قليلاً.. فليس هو المكان المناسب لتقف وتناجي ربك..

فهل من الممكن أن توجد هنا ملائكةٌ غير ملائكة العذاب؟؟

كنت قد بدأت أغفو وأنا جالسٌ عندما سمعت صوت باب الغرفة يفتح وينادى علي..

بعد لحظات كنت خارج المبنى كلياً..

لم أصدق نفسي وأنا أشعر بالانعتاق.. وتذكرت تجربة معتصمٍ البارحة..

ركبت سيارة أجرةٍ وتوجّهت نحو منزلي..

حين دخلت غيّرت ملابسي وصلّيت واندسست في الفراش بسرعة..

ولكن بعد خمس دقائق كانت خطوات جمانة على الدرج..

وصوت الجرس يزعقان في أذني..

قمت متثاقلاً.. وأنا أقول في نفسي: اليوم بالذات يا جمانة لست متشوقاً إلى رؤيتك.. خلافاً لعادتي..

فتحت الباب.. قالت لي: مرحباً.. أبي يدعوك إلى الفطور اليوم..

لا تتأخر فأنا من طبخ..!

قلت لها مشاكساً: أمتأكدةٌ أنتِ أنني لن أصاب بعسر هضم؟؟

ضحكت وقالت: ستندم على كلامك هذا..

لم أكن قد نمت سوى دقائق حين رن الهاتف.. كان جدي..

سألني: كيف سارت الأمور؟ أخبرته أنني قد عدت منذ وقتٍ قصير.. وأنني سأحكي له بالتفصيل برسالةٍ على الإنترنت بعد قليل.. فاطمأن..

عندما أغلقت السمّاعة عاود الهاتف الرنين.. كنت في غاية التعب والإرهاق..

متمنياً الدخول في فراشي والإخلاد إلى النوم.. ولم يبق لأذان المغرب سوى ساعة..

صوت امرأةٍ لم أعرفها..

سألتني بتردد: زياد.. أهذا أنت؟

فكرت: ليس هذا صوت هدى أو سها أو حتى جمانة فمن هي؟؟

سألتها: عفواً من أنت؟

بعد تنهيدةٍ قصيرةٍ قالت: أنا سماء... أختك: سماء الصافي..

تنبّهت كل حواسي.. وانتظرت ما ستقوله بفارغ الصبر..

صوتها كان بعيداً.. خائفاً.. خجلاً.. قادماً ليستقر في أعماقي..

سألتني: هل أنت بخير؟؟

قلت: نعم الحمد لله..

قالت: أحببت أن أطمئن عليك..

عندما أغلقتُ السماعة.. كنت أشعر أنني سعيدٌ حتى آخر قطرةٍ فيّ..

مع أنني منهكٌ حتى العظام..

كيف يمكن أن تجتمع لحظة السعادة الفائقة مع لحظة الإنهاك.. في وقتٍ واحد..؟؟

حين تشعر أنك متعبٌ جداً وقد أعطيت كل ما لديك ووصلت إلى الحافة..

ولم يعد يهمك هل سيثني عليك أحدٌ أو يتجاوب معك..

ثم تنهال عليك الجوائز الربّانية والمِنَح والهدايا لتشعر أنك أسعد إنسانٍ في الكون وأنك لن تموت بحسرتك..

ستكون هذه اللحظات هي كنزك الذي اكتشفته..

والذي سيجعلك تموت مطمئناً!!

* * *

(٢٣)

لم يغمض لي جفن.. إلى أن سمعت أذان المغرب، فارتديت ملابسي وصعدت إلى بيت أبي محمود..

كان الباب مفتوحاً.. هرعت جمانة وناولتني كأس العصير..

في دفء بيتهم وحنانهم الذي غمروني به..شعرت بالراحة..

وكأنني في بيتي وبين أهلي..

لم يكن ينغِّص هذا الشعور سوى فكرة واحدة طرأت على ذهني..

كنت أخشى على علاقتي مع العم أبي محمود أن يعكّرها تعلّق جمانة بي..

لست أريد أن أخيّب ظنّ أبي محمودٍ بي..

ولست أريد أن تشعر جمانة تجاهي إلا بشعوري نفسه تجاهها.. الأخوّة الصادقة..

كنت أفكّر بكل هذا عندما عدت إلى البيت..

هاتفت معتصماً لأطمئن عليه..

لم يكن يعلم أي شيء مما حدث لي اليوم ولم

أخبره.. فلم أرد أن أزيد في همومه.. وقلت له إني سأمرّ عليه غداً من أجل موعدنا مع عروبة..

كنت أستعدّ للنوم.. ولكنني سمعت وقع خطواتٍ أنثويةٍ غريبةٍ مترددةٍ على الدرجات.. ثم رنّ الجرس..

نظراً للأحداث الغريبة التي حدثت معي اليوم فإنني توجست خوفاً..

فقد كانت تبدو لي دمشق ذات مفاجآتٍ مرعبةٍ أحياناً..

من التي ستأتي إليّ الآن والساعة تقارب الثامنة مساءً..

ليست جمانة؛ فهذا ليس وقع خطواتها..

فتحتُ الباب.. كانت سماء واقفةً هناك..

استقبلتها مرحّباً: تفضلي..

بدت محرجة.. تخيّلتها تقول لنفسها: ما الذي جاء بي إلى هنا وحدي..

وأنا لا أثق بهذا الشخص.. فأنا لا أعرفه..

أدخلتها غرفة الجلوس بدت لي كهديةٍ أخرى منزّلةٍ من السماء..

سألتني عن صحتي.. ربما لأن وجهي كان يبدو عليه آثار التعب..طمأنتها..

وبعد.. بدت مرتبكةً لا تعرف ما تقول..

قلت لها: سعيدٌ جداً برؤيتك..

بدت جملتي مكررةً لكن اللهجة التي حدّثتها بها كانت جديدةً حتى بالنسبة إليّ..

قالت لي: هل أزعجوك في التحقيق؟...

قلت لها: لا تخافي كلها أمورٌ روتينية..

قالت: اتصلتُ بك ظهراً فلم يردّ أحد.. متى عدت؟..

قلت: نحو الرابعة بعد الظهر.. كيف عرفتِ؟

قالت: جارك اتصل بهيثم.. وهو أخبرني..

سألتها: وكيف حال هيثم؟

قالت: باله مشغولٌ عليك أيضاً.. ولكنني طمأنته أنك بخير..

ساد صمتٌ بيننا كان مليئاً بالمعاني..

قالت بصوتٍ أقرب إلى الوشوشة وكأنها تدلي باعترافٍ على استحياء:

منذ أن رأيتك لآخر مرةٍ وأنا أرى أبي يومياً في أحلامي..

يبدو حزيناً وهو يقول: أهكذا يا سماء تطردينني من بيتك..

صار الحلم يتكرر كل ليلة..

وبدأت أندم لتصرفنا هكذا معك.. أقصد لتصرفي..

فقد قال لي هيثم مؤخراً: إنك حقيقةً أخي..

وإن والدي كان يعلم بأمرك قبل أن يموت..

جملتها هذه سببت لي صدمةً لم أكن أتوقعها.. وطعنةً أخرى أيضاً..

لم تقل سماء أي شيء آخر عن أبيها؛ أقصد أبينا..

ولكنها دعتني إلى فطور اليوم التالي وأعطتني عنوانها..

* * *

(٢٤)

في بيت معتصم.. في اليوم التالي كنت أحكي له عما حدث معي في التحقيق..

ولكني أغفلت عامداً سؤال المحقق بشأنه..

لم أكن أريد أن أزيد من خوفه..

ثم حكيت له عن زيارة سماء.. ودعوتها لي إلى الفطور..

سألني بصوتٍ بدا فيه الارتباك: هل لديك مشكلةٌ إذا ذهبت إلى موعد عروبة وحدك؟

فأنا أشعر بالمرض..

حين فتحت باب مكتبه.. كان الجو كئيباً..

تعودت أن أرى معتصماً هنا.. كانت رؤية المكان من دون صاحبه مؤلمة..

فتحت الستائر الخشبية والنوافذ.. فأنار المكان.. وبدأ الهواء يتسلل إلى الداخل..

حين أتت عروبة كانت رائحة عطرها تسبقها..

كانت ملابسها ضيقة ووجهها مليئاً بالألوان..

أعطيتها اللوحة وقبضت ثمنها..

قالت إنها تريد لوحةً أخرى فأخبرتها أنّ معتصماً مريض وأنني سأخبره برغبتها..

كنت أنظر إلى الحزن المختبئ في عينيها..

تذكرت حين دعانا شابٌّ دمشقيٌّ إلى العشاء في بيته أنا وجمال في أمريكة..

كان مضيفنا متزوجاً من امرأة مكسيكيةٍ أمريكية.. تهوى الرسم..

حين كنت عنده واستأذنت في الدخول إلى الحمام.. طالعتني في الأروقة رسوماتها المعلّقة على الجدار..

وما لفت نظري لوحةٌ تكررت أكثر من مرةٍ ولكن بطريقةٍ مختلفة..

كانت عبارةً عن وجه مهرجٍ ضاحك.. والدموع تنهمر من عينيه الحزينتين..

ووجهه مليءٌ بالأصباغ..

كان وجه عروبة يشبهه تماماً..

كنت أفكر.. ترى لو رآها والدها الآن هل كان سيتوقع أنها ابنته..

أو لعل السؤال يمكن صياغته بشكلٍ مختلف..

ما الصورة التي كان يتخيلها والدها عنها حين تكبر؟

وهل هي مطابقةٌ لما هي عليه الآن؟

حين ذهبتْ بقيتُ أنا أفكر.. في هذه الدنيا الغريبة..

ترى هل يتوقع المرء من أولاده ما يمكن أن يكونوه؟؟

حين توجَّهت إلى بيت معتصم.. كانت تمطر..

كل قطرةٍ تهطل كانت تعدني بهديةٍ أخرى.. وامتحانٍ آخر..

سألني عما جرى مع عروبة النجار..

حكيتُ له كل ما حدث.. وذكرت له أنها تطلب لوحةً أخرى..

كنت أشعر أن قلبي غدا شفافاً من جراء أحداث اليومين الأخيرين..

وكان لدي يقين بأن معتصماً لم يعد قطُّ كما كان..

* * *

(٢٥)

وقفت في المصعد منتظراً وصوله إلى شقة أختي سماء..

أنظر إلى المرآة..

أرتّب هندامي..

ضحكت من نفسي.. لا يهم أحبّوني أم لا.. المهم أنهم إخوتي وأنا أحبّهم..

ضربت الجرس منتظراً وأنا أسمع المؤذن وقد اختلط صوته بصوت طفلٍ صغيرٍ وراء الباب..

فُتح الباب.. نظرت إلى سماء..

كانت ابتسامتها تملأ وجهها.. وهي تحمل طفلةً جميلةً على كتفها..

صافحتني وقالت: تفضل...

دخلتُ.. عرّفتني بزوجها مأمون الذي رحّب بي..

وراءهم كان يقف هيثم..

لم أتوقع رؤيته، لذلك بدا وجهي دهشاً وسعيداً في الوقت نفسه..

جلست معهم حول مائدة الفطور كما تجلس أي أسرةٍ عادية...

ولكني كنت أشعر بشيء من التكلّف يلفّنا جميعاً..

ليس هذا ما تمنيته.. ولكن..لم أنا مستعجل؟

طوال فترة بقائي هناك.. كانت سماء تحاول خلق جوٍّ عائلي..

أما هيثم فقد بقي لطيفاً ومتحفظاً..

زوجها مأمون كان هادئاً..

اعتذرت منهم بعد الفطور بفترةٍ لإحساسي بالتعب..

سألني هيثم وأنا أسلّم عليه: متى ستسافر؟....

أحسست بسكينٍ مسددةٍ إلى قلبي..

قلت له مازحاً: هل تحاول التخلّص مني؟ سأبقى قليلاً.. فلدي بعض الأعمال التي يجب إنجازها هنا..

قال لي: ربما من الأفضل لك المسارعة في السفر..

جوابي كان بالصمت على جملته وأنا أتخيل كل شيءٍ يتداعى من حولي..

تابع وقال: بعد ما حدث البارحة.. من الأفضل أن تسافر سريعاً..

حاولت العودةَ مشياً على الأقدام لكثرة اضطرابي من كلام أخي هيثم..

لم يريدني أن أرحل سريعاً؟

هل أشكّل عليه عبئاً ما؟

ولكني تهت بين شوارعك يا دمشق..

تهت كما توقع معتصم.. في وطني..

وجدت نفسي أركب سيارة أجرة وأطلب منه التوجّه إلى المقبرة..

كانت تلك أول مرةٍ يستبدّ بي شعورٌ قويٌّ يسيطر عليّ: أريد أن أرى قبر أبي..

المقبرة مغلقة..

ولا يوجد أحدٌ هناك..

والدنيا ظلام..

وقفت على بابها أتأمّل القبور وراءه.. واحداً واحداً..

ترى أيّها لأبي..

هذا مكانٌ يجب أن تشعر فيه بالسكينة..

هكذا حدّثتُ نفسي أواسيها رغم ألمي..

لن يستطيع أحدٌ هنا أن يزعجك..

أن يهزأ منك..

أن يحقّق معك..

أن يطلب منك السفر..

كل الموجودين هنا.. ذهبوا ولن يعودوا...

حبسوا هنا كلّ واحدٍ مع نفسه.. ليفكر حتى آخر الحياة ماذا فعل..

لأول مرةٍ تخيّلتُ أبي يُحاسَب.. وأشفقتُ عليه..

كلّ الحقد الذي حقدته عليه في الماضي عندما كنت مراهقاً..

وحين تزوجتْ أمي وتركتني..

كلّ ذلك تلاشى وبدأت أشعر بالإشفاق..

تمنيتُ لو أتيحت لنا الفرصة لنتعرف بعضنا إلى بعض..

تمنيت لو يخرج يده من القبر ويضعها على رأسي ليمسح عليه..

ويقول: لا تخف يا بني.. ستكون الأمور بخير..

أنت ابني.. مثل هيثم وسماء.. ورياض

لست أدري..

هل هو المطر الذي بلّل وجهي؟

أم هي دموعي التي تساقطت وغسلت قلبي..

كانت تلك أولّ مرة منذ زمنٍ طويل.. أعترف فيها لنفسي بضعفي وحاجتي إلى الآخرين..

أعترف أنني قدمت إلى هنا بحثاً عن عائلتي.. ليحبوني وأحبهم..

كم كنت طماعاً وأنا أبحث عن عائلةٍ أخرى تحبني..

ألم يكن كافياً أن تحبني أمي وجدي وجدتي...؟!

* * *

(٢٦)

كنت نائماً، وبدا لي رنين الهاتف بعيداً جداً..

رفعت السماعة وأنا لم أستيقظ بعد بشكلٍ كامل..

جاءني صوت سها الباكي: زياد.. أرجوك.. أخي معتصم لا أعرف ما باله..

اتصلنا بالإسعاف وذهبتْ هدى معه إلى المشفى وبقيت مع الأولاد..

زياد لا أعرف كيف أتصرف..

لا أدري كيف ارتديتُ ملابسي بسرعةٍ هائلةٍ وخرجت مسرعاً..

كانت الساعة الثالثة ليلاً..

أوقفت سيارة أجرةٍ بعد انتظار.. وركبتها متجهاً إلى المستشفى..

دخلت باحثاً عن قسم الإسعاف.. وقبل أن أسأل عن معتصم رأيت هدى واقفةً تبكي في الرواق..

هرعت إليها وأنا أسألها: خيراً إن شاء الله؟ ماذا حصل..؟

أخبرتني أنها استيقظت على صوت معتصم يئنّ ويتوجع..

وأنها ذهبت لتعدّ له بعض الشراب الساخن..

وحين عادت وجدته في حالةٍ سيئةٍ فاتصلت بالإسعاف..

كنت أفكّر فيه.. ترى كم تحمّل من الكوارث والشدائد؟..

كيف لجسمه ألا ينهار تحت وطأة الضغط والخوف والتوتر..

وقفنا ننتظر الطبيب لينهي فحصه..

لست أدري كم مضى من الوقت..

عندما خرج الطبيب قائلاً لنا: إن معتصماً مصابٌ بجلطةٍ قلبية.. وإنه يجب أن يبقى في العناية المشددة لمدة يومين على الأقل ليتجاوز مرحلة الخطر على حياته..

عادت هدى تنتحب.. وحاولت تهدئتها..

طلب منها الطبيب أن تذهب إلى البيت فلا داعي لوجودها؛ لكون معتصم في غرفة العناية التي يحظر دخولها..

ولكنها رفضت بعناد.. وأصررتُ أنا على البقاء معها..

دخلت لتراه من بعيد للحظات بعد أن سمح لها الطبيب بصعوبة..

وراءها كنت..

أنظر إلى حطام معتصم متصلاً بالأنابيب.. شبه ميت..

أنظر إلى روحٍ هدّتها الأحداث.. وجسدٍ هدّه المرض..

نزلت فاشتريت لها بعض الطعام لتتناوله قبل أذان الفجر..

واتصلتُ بسها فطمأنتها..

ثمّ جلستُ أنتظر بزوغ الصباح..

* * *

(٢٧)

لم أنل قسطاً وافراً من النوم ذلك اليوم..

ربما ساعة أو ساعتين..

كنت مشغول البال على معتصم..

ففي الصباح جاءتْ سها وحلّتْ محل هدى ماكثةً قرب أخيها تقرأ القرآن..

حينها اصطحبت هدى إلى بيتها ثمّ عدت إلى منزلي..

عندما يئست من النوم..ويئس مني..

ارتديت ملابسي متوجهاً إلى المصرف..

لأسحب بعض النقود..

تمهّلت هناك وأنا أرى وجهها المألوف..

كانت جمانة تقف مع بعض الفتيات والفتيان وبعضهم يدخن..

في رمضان!!

لم أعرفها أول وهلة فقد كان ذهني مشغولاً..

ولكنني دقّقت النظر فوجدتها هي..

ألا يفترض بها أن تكون في المدرسة الآن في هذا الوقت؟؟

التقت نظراتنا.. ولكنها أشاحت بعيداً..!

لم أكد أفكر فيها عندما كنت داخلاً إلى المصرف ساحباً المال..

ولكن في أعماقي سمعتُ صوت شيءٍ يتكسر..

ألمٌ صغيرٌ لجرحٍ صغيرٍ كان يئنّ..

يبدو أن الحزن والألم باتا من اختصاصي..

حين وصلت إلى غرفة العناية المركزة لأطمئن على معتصم..

كانت سها تقف بالباب..

تلك العينان الحزينتان..كانتا كعلمٍ يرفرف على وجهها..

سألتها عن الأخبار.. أجابتني: الحالة مستقرة..

جلسنا في غرفة الانتظار..

لم أتحدث؛ فلم يكن لديّ الرغبة..

كنت كمن يحاول الاستمتاع بألمه بدل التوجع..

كان هناك صوتٌ ضعيفٌ يتوجع في داخلي..

وأنا أرى كلّ الأشياء الجميلة من حولي تفقد معناها..

حتى هي كانت صامتةً وكأنها صائمةٌ عن الكلام..

اتّحد ألمي مع ألمها.. مشكّلاً أغنيةً حزينة..

هي تبكي أخاها..

وأنا أبكي الشخص الوحيد.. الذي رضي أن يكون أخي دون تردد..

في هذه المدينة الحزينة..

أرسلتها إلى البيت كي ترسل هدى مكانها..

وجلست أمام غرفة العناية المشددة..

لم أدر كم مرّ علي من الوقت وأنا أنتظر..

أناس يمرون من أمامي..

صخب ممرضات.. وأنين مرضى..

غفوت وأنا جالس..

ولم أشعر إلا على صوتٍ يهمس باسمي..

فتحت عيني مذعوراً.. كانت هدى تقف هناك..

لم تعد هدى كما كانت..

وأنت يا دمشق.. لم تعودي كما كنت....

* * *

(٢٨)

أعود ماشياً على قدمي.. غير مبالٍ بالجوع.. أو التعب..

وكأنني كنت أشعر أنني محتاجٌ إلى المزيد..

المطر يماشيني يواكبني.. وكأنه يواسيني..

وكأن دمشق تصالحني..

لست أدري..كنت محاصراً بأفكاري وذكرياتي.. وأنا أسأل نفسي..

أين المشكلة: أين يكمن خطئي في ذلك كله؟

لم تجري الأمور هكذا؟

وكأن الحياة تأبى إلّا أن تأخذ كل شيء رائعٍ منا دفعةً واحدة؟

وتأتي جمانة..

فأراها؛ وليتني لم أرها وهي تشيح بنظراتها عني..

حتى أنت يا جمانة؟

يا من تعوَّد قلبي الفرح برؤيتها؟

يا من كانت تحلّق حولي كفراشةٍ ربيعية تنثر العبير من حولها؟

كنت أخرج المفتاح من جيبي نازلاً الدرجات..

أحسست بحركةٍ ورائي..

هي تقف هناك..

وقد تغيَّرت.. وكلّلها الإثم..

بدت لي مختلفةً عن جمانة التي عرفتها..

أدرت وجهي محاولاً فتح الباب..

قالت: أحضرت لك الصينية.. هل أدخلها لك إلى المطبخ؟

لم أستطع السماح لها..

ربما جمانة الآن لم تعد تعني لي شيئاً.. ولكن ما يزال والدها يعني لي الكثير..

ولم أكن أستطيع المغامرة بأن يراها أحدٌ داخلةً بيتي..

ويتحدث عنها ولو بكلمةٍ صغيرة..

سحبت الصينية من يدها.. وخرجت كلمة شكراً من فمي بصعوبة..

في حين تحاشيت النظر في عينيها..

بدت مترددةً في الانسحاب، أما أنا فلا..

قالت: انتظر أرجوك.. الموضوع ليس كما يبدو..

إنّها أول مرةٍ أهرب فيها من المدرسة..

كان ذلك بتأثيرٍ من رفيقاتي..

لدينا حصة رياضيات اليوم..

ولم أكن قد كتبت الوظيفة.. فهربت معهن..

ولم نكن نفعل شيئاً.. كنا نتمشى فقط..

والشابان اللّذان كنّا نقف معهما..

اليوم أول مرة أراهما.. والله..

هذه أول مرةٍ صدقني..

قلت لها: لم تخبرينني بكلّ هذا؟ أنا لم أسألك ولم أحاسبك..

ولست مضطرةً لتقديم أيّ تبريرٍ أو اعتذارٍ لي..

دخلتُ البيت حاملاً الصينية..

مغلقاً الباب ورائي بدفعةٍ صغيرةٍ من قدمي..

وضعت الصينية على الطاولة..

اندسست في فراشي.. وتوقعت أن أنام..

حين يرفض عقلك النوم..

وتستجديه عيناك..

في حين أن قلبك يبكي..

أنّى لك أن تنام؟

* * *

(٢٩)

كما يقول أهلك يا دمشق: ضربتان على الرأس توجعان..

أما أنت فقد سددت لي عدة ضرباتٍ حتى الآن..

هاتفتني سماء.. تسأل عني..

ويبدو أنها فوجئت بي أردّ عليها بهدوءٍ وتحفظ..

دون نبرة الصوت الفرحة.. تلك التي تخرج مني رغماً عني عندما أراها أو أسمع صوتها..

سألتني: هل أنت بخير؟

أجبتها: لا؛ صديقي في المستشفى وقد أجّلت سفري حتى يتحسن..

وغداً سيخرج من العناية المركزة..

قالت لي: أحتاجك في (مشوار).. هل تذهب معي؟!

هذه المرّة تمنيت لو أستطيع الرفض..

ولكني لم أقوَ على ذلك..

حين مرت علي بسيارتها في الموعد.. ركبت بجانبها..

وبعد أن سلّمت عليها سألتها أين سنذهب..

ولكنها ترددت قليلاً ثم قالت:

منذ شهرٍ وأنا أفكّر في هذا (المشوار) ولكني لم أجرؤ على الذهاب بمفردي..

ففكرت أن نذهب معاً..

بعد فترةٍ توقفتْ سيارتها أمام بيت والدها القديم..

كنت مبهوراً..

أخرجتِ المفاتيح ونحن ندخل بين شجرتي الكينا..

حين كنا نصعد الدرج كنّا نسمع طرف محادثةٍ نسائيةٍ عالية..

وضحكتْ سماء قائلة..

هذه خالة فطمة..

ابتسمتُ وقلت: خالة فطمة.. ذكرها الله بالخير..

قالت لي: لو تعرّفت عليها لأحببتها كثيراً..

تجاهلت ملاحظتها وأنا أدرك أنّها لم تنتبه لعبارتي.. فقد سرحتْ وراء الذكريات..

في حين كنت أتذكر زيارتي لخالة فطمة..

حين فتحتْ سماء الباب بالمفتاح... وخطت داخلة..

بقيتُ برهةً.. واقفاً غير متجرئٍ على الدخول..

وكأنني أدخل عبر فتحة الزمن.. إلى عالمٍ مسحور..

ربما كان مؤلماً.. وربما كان مفرحاً..

قالت: تفضل، البيت بيتك. بابتسامتها المرحبة..

نظرت طويلاً إليها:

أختي الصغرى التي كانت ربما ثمرة مصالحة والدي زوجتَه الأولى..

والتي ربما تصغرني بسنة ونيف في العمر..

أختي التي لو كنا عشنا معاً لكان بيننا ذكرياتٌ وذكريات..

لربما كنت حضرت حفل تخرّجها أو عرسها أو ربما ولادتها..

خطوت داخل البهو ووقفت هناك..

شعورٌ عميقٌ بالارتياح والخدر تملكني..

وأحسست بكل ذرةٍ في جسدي تنتشي.. وكأني تلقيت صعقةً كهربائية..

كانت صورة والدي تقف أمامي على الحائط معلّقةً بجلال..

وكأنني كنت في جلسة تحضير أرواح..

واقفاً هناك وهي بجانبي.. والباب مفتوحٌ ورائي..

هبت نسائم لطيفةً مرحبةً بي..

وبدأت خصلات شعري تتحرك..

وبدأ حجابها يتحرك متجاوباً مع تلك النسائم..

جاء صوتها يخاطبني.. ادخل قليلاً بعد..

لا أستطيع إغلاق الباب.. فبيت أهلي مشهورٌ بتيّاراته الهوائية القوية..

سحبتني من يدي بعفويةٍ إلى الداخل لتريني الصالون..

ثم غرفتها المليئة بالدمى والأرانب والدببة..

ثم غرفة هيثم التي وقفت فيها متأملاً..

بدت لي غرفةً غامضةً مليئةً بالأسرار..كعالمٍ مسحور..

ثم غرفة رياض التي رفضت دخولها متراجعاً..

حين دخلت غرفة أبي.. كان هناك سريران معدان..

الأغراض في مكانها..

الساعة المنبه بجانب السرير.. التسريحة..

وهناك فوقها علبة عطر..

تقدمت بهدوءٍ نحوها.. حملتها..

فتحتها شممتها...

وضعت نقطةً منها على راحة يدي... واستدرت..

تخيلته نائماً على السرير..

مضجعاً..جالساً هناك..

ضاحكاً.. عابساً.. واجماً..

تلمّست حافة السرير محاولاً استجداءه ليخبرني بذكرياته ورائحة العطر تعشش فيّ..

الخزانة.. سجادة الصلاة المطوية..

عباءةً صوفيةً معلقةً على الجدار..

سحبتها شممتها..ثم بدأت أرتديها ببطء..

استدرت مواجهاً سريره..

لست أدري لم ظننت أن السرير المواجه للباب سريره..

جلست على طرف السرير المقابل لسريره.. وأنا مرتد العباءة.

كنت سابحاً في أفكاري عندما سمعت صرختها..

كانت تقف قبالتي.. وهي تنظر إلي بفزع..

قالت: أنت تشبهه كثيراً.. ولكن شعره كان أبيض..

انهمرت دمعتان على وجنتيها..

قمت وأنا أنزع العباءة عني وأعلّقها في مكانها..

قالت وهي تمسح دموعها:

رفضت أمي رفضاً قاطعاً أن تغيّر أماكن الأشياء..

حين مات أبي تركت ملابسه على حالها.. وعباءته.. وكل شيءٍ في مكانه..

وحين ماتت هي أصررت أنا على أن أترك كل شيءٍ في مكانه أيضاً..

آتي إلى هنا كل شهرٍ لأنظّف المكان.. وأستعيد روائح والدي ووالدتي..

رنين الهاتف قاطع كلامها.. وسحبني من أفكاري..

أمسكتْ سماء بالسماعة وهي تردُّ..

سحبتُ الصورة الموجودة قرب السرير..

صورته مع زوجته يوماً..

كان واقفاً وراء الكرسي الذي تجلس عليه زوجته وحولهما رياض وهيثم وسماء..

سمعت سماء تقول: نعم هذا أنا.. لا تخافي فطمة خانم..

جئت لأطمئن على البيت وأحضر منه بعض الأغراض..

حين أغلقتِ السماعة قالت لي:

فطمة خانم مصرّةٌ على أن أمرّ عليها لتسلّم عليّ..

أتحب أن تصعد معي أم تبقى هنا ريثما أسلّم عليها وأنزل..

قلت لها: كما تريدين..

- حسناً ابق هنا..

سمعت الباب يفتح بعد لحظات..

وبدأت التيارات الهوائية تعود، وسمعت صوتها يدوي حولي..

فتحتُ باب الشرفة.. خطوتُ داخلها.. متلمساً الحافة..

أتخيله يشرب قهوته هنا..

أتخيله جالساً متأملاً الطريق..

أتخيله يفكر فيّ..

ربما شطح خيالي بعيداً..

ترى هل كان يعلم بوجودي في هذه الحياة..

حين كان هنا يوماً من الأيام يشرب قهوته؟!

تركت باب الشرفة موارباً..

وقررت أن أعود في وقتٍ آخر باحثاً عن أي أثرٍ يدلني على علمه بوجودي قبل أن يموت

سمعت أصوات حديثٍ قادمةً من الباب الخارجي..

صوت رجلين يتحدثان..

واحدٌ منهما عرفته: صوت رياض..

كان يقول: هذا هو البيت.. فيه سبع غرف ومطبخ وحمامان..

شعرت بهما يدخلان غرفة الضيوف..

فدخلت الغرفة الأخيرة بهدوءٍ تام.. دون أن يشعرا بي..

لم أكن أريده أن يراني.. ولم أكن أريد أن أراه..

فقد كان شعوري نحوه منذ لقائنا الوحيد خليطاً من المشاعر البغيضة..

كانت الغرفة التي دخلتها مظلمةً تماماً..

ولكنني تبيّنت مكتباً ومكتبةً ضخمةً.. وكرسيين من الجلد..

فاختبأت وراء المكتب..

جلست القرفصاء أنتظر وأنا أفكر..

كيف يمكن أن أكون مختبئاً هنا.. وأختي سماء أدخلتني بطلبٍ منها؟ وهذا هو بيت والدي؟!

دخلا الغرفة التي كنت فيها..

رياض كان يقول: أنت تعرف أن أختي متعلقةً جداً بالبيت.. فلها ذكرياتٌ فيه..

ولا تريد بيعه..

ولكن يمكن إقناعها بالبيع.. إذا كان السعر جيداً..

سأله رفيقه: وكم تطلبون ثمناً له؟

أجابه: سنتحدث في هذا بمكتبي.. تعال لأريك بقية غرف البيت..

حين خرجا من المنزل.. كان الإرهاق قد نال مني.. فانتظرت سماء على باب المنزل

كي أعود إلى بيتي.

* * *

(٣٠)

ذهبت لأتفقد معتصماً..

في المشفى كنت أرقب شبه الرجل الذي انهار أخيراً..

مستسلماً لكل طرقات القدر التي كانت تحاول تحطيمه..

فتح عينيه ونظر إلي مباشرةً وابتسم: أنت هنا.. هل أجّلت سفرك ثانية؟

قلت: الحمد لله على سلامتك..

هدى كانت كفراشةٍ فرحةٍ تطير حوله لتوفّر أسباب الراحة..

أما سها فكانت جالسةً قربه ترقبه بحنان..

هذا الرجل رب العائلة.. الذي انهار أخيراً..

كيف يمكن أن يحدث له شيء..؟؟

بل ما الذي سيحصل إن حدث له شيء..؟؟

حاول النهوض ولكننا منعناه..

طلب أن يذهب إلى الحمام.. متجاهلاً نصيحة الأطباء التي نصّت على عدم قيامه من السرير..

ساعدته هدى على النهوض ولكنها لم تستطع بمفردها..

ساعدته أنا من الجهة الأخرى.. وأوصلته إلى الحمام..

وأدركت ساعتها أنني أصبحت فرداً من العائلة..

* * *

(٣١)

نمت قليلاً بعد أن ربطت المنبه على الساعة الثانية عشرة..

فقد كنت أنوي اقتحام بيت والدي..

أرعبتني الفكرة: هل أنا لص؟؟

لا، لست لصاً... فهذا بيتي كما هو بيت إخوتي..

أم لعلّه ليس كذلك؟؟؟

كنت متردداً حين رنّ المنبه.. هل أمضي فيما خطّطته أم لا..

قررت أن أمضي.. وقمت وارتديت ملابسي..

كان جسدي ينضح بالعرق.. وأنا أشعر بالخوف من نفسي..

كنت خائفاً مما يمكن أن أفعله..

حين تسلّقت شرفة بيت أبي.. ودفعت الباب..

كانت الغرفة تبدو لي موحشةً في ظلام الليل..

أغلقت الباب والستائر التي وراءه..

هرعت إلى غرفة الجلوس أفكر وأفتش أين يمكن أن أجد دليلاً على معرفته بوجودي..

فتحت الخزانة القديمة تحت التلفاز..كان هناك سجادة صلاة وطقم صلاة..

لا.. ليس هذا ما أبحث عنه..

فتحت الجانب الآخر.. بعض الشموع وعلبة كبريت ومصباحٌ يدوي..

تلفتٌ في الغرفة.. لم يكن هناك أي شيء سوى بعض قطع الصمديات..

تمثال عصفورٍ معدنيٍ يذكّرني بآثار الفراعنة..

بعض الصحون الفضية التي ضاع لونها الأصلي..

في غرفة الضيوف أيضاً كان هناك طقم الكنبات الموزاييك الضخم..

وبجانبه جرتان ضخمتان مزخرفتان على الطريقة الصينية..

وبعض قطع الكريستال الصغيرة

غرفته كانت مليئةً بالخزائن المغلقة؛ فتحتها واحدةً واحدة..

كانت أغراض زوجة أبي تملؤها..

فقط الخزانة المغلقة الوسطى استعصت على الفتح..

يا إلهي.. حتى الآن لم أجد دليلاً واحداً على معرفته بوجودي..

توجهت نحو الخزانة التي لم تفتح معي قبلاً..

حاولت فتحها.. ولكنها لم تتجاوب..

أخرجت مفكاً من جيبي كنت قد أحضرته لهذه الغاية.. وأدخلته في القفل..

انفتح باب الخزانة فجأة..

وبدأت تلك الرائحة النفاذة تتسلّل إلى أنفي..

رائحة الصابون الحلبي القديم..

الذي كان الدمشقيون يخزّنونه مع أشيائهم الثمينة التي يخافون عليها..

صرةً تشبه تلك التي في خزانة جدتي..

حملتها ووضعتها على السرير.. وبدأت أفتحها بحرص..

بعض المناشف وبعض الملابس..ولوحان من صابون الغار.. وبعض الترابة الحلبية..

لم يكن هناك شيء آخر..

أعدت الصرّة إلى مكانها ثم حاولت إغلاق باب الخزانة الذي رفض..

فوضعت قطعةً من الورق على حافة الباب بعد أن طويتها عدة مرات وأغلقته..

خرجت من غرفة أبي.. أتلفّت حولي..

كانت هناك الخزانة الجدارية مقابلي..

فتحتها.. بدت لي فارغة..

ولكن كان هناك كتابةٌ على جدارها الداخلي..

اقتربت لأتفحّص..

كان مكتوباً بخط يدٍ بدا صاحبه لي مستعجلاً.. الآية الكريمة:

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٢٨/٨٥]..

وتحته كتب تاريخ ١٩٧٥؟؟؟؟؟

أحسست بقلبي يغوص بين ضلوعي..

إنّه تاريخ سفره إلى كندة..

وتحتها كتبت الآية مرة أخرى ولكن بخط يدٍ أخرى ووضع تحتها ١٩٩٣..

من كتبها؟؟ هل كتبها هيثم حين نقل والده إلى المشفى؟

أم كتبتها زوجته.. وهي تراه على فراش الموت؟؟؟

....

في أسفل الخزانة كان هناك حذاءً قديمٌ بأربطة..

نظرت إلى حذائي: إنه يشبهه تماماً..

خلعت حذائي.. وأدخلت ذلك الحذاء القديم المغبر في قدمي..

كان على المقاس تماماً..

خلعت الحذاء ووضعته مكانه وأعدت إغلاق الخزانة..

صممت على البحث في الغرفة الأخيرة.. غرفة المكتب..

فتحت درج المكتب. بعض الأوراق العادية وظرفٌ كبير..

فتحته: صورٌ قديمة..

صورة لشبانٍ يسيرون في مظاهرةٍ تبدو منذ الستينات..

وصور ثلاثة رجالٍ واقفين..

كان أبي واحداً منهم.. والثاني كان جدي..

أما الثالث فلست أعرفه..

سحبت تلك الصورة ووضعتها في جيبي..

لم يكن هناك أي شيء آخر مهم..

وبدأت أتفحص المكتبة..

رفٌّ خاص بمجلة المعرفة..

ثم رفٌّ آخر خاص بمجلة العربي..

ثم مجلدات مجلة الرواية..

رف لطه حسين.. والعقاد والمازني ويوسف إدريس..

ثم رف للأدب الروسي: دستويفسكي.. تولستوي.. مكسيم غوركي..

ثم رف للأدب العالمي فيكتور هيجو.. تشارلز ديكنز.. الأخوات برونتي...

بينهم كتّابي المفضلون..

تلمّست الكتب..

دخلت رائحتها إلى رئتيّ..

لفتَ نظري كتابٌ شديد الاهتراء بينها.

سحبته.. كان الجزء الأول من قصة الإخوة كارامازوف..

تصفحته..كان قد كتب على جوانبه بعض التعليقات..

وكان هناك ظرفٌ بنيٌّ مغلقٌ داخله.. سقط على الأرض..

مكتوبٌ عليه: إلى ابني هيثم الصافي

أعدته إلى مكانه..

ما الذي كنت أتوقعه؟؟

هل توقعت أن أجد عقد زواج والديّ؟؟

أم شهادة ميلادي؟؟

أم لعلها صوري.. لأستدلّ من وجودها على أنه كان دائم التفكير فيّ؟؟

مهما كان الذي أبحث عنه فأنا لم أجده هنا بالتأكيد..

* * *

(٣٢)

حين وصلت إلى البيت كان جرس الهاتف يرنّ دون انقطاع..

ركضت ورفعت السماعة.. كان المتحدث جمالاً من كندة..

سألته: ما أخبار الامتحانات؟!

قال: أخبرني عن معتصم ما هي حاله؟..

صمتّ ولم أجب..

كيف عرف جمال بمرض معتصم؟..

من الذي أخبره بمثل هذا الوقت؟..

جمال يقدّم الامتحان النهائي في كلية الطب..

وهذا ليس الوقت المناسب لقطع امتحانه..

سمعت صوته يقول: أرجوك أخبرني هل حالته خطيرة؟

قلت: إنه بخير.. تعرّض لأزمةٍ قلبيةٍ منذ يومين..

وطلب الأطباء وضعه في العناية المركزة لمدة يومين.. للتأكد من أن لا خطر عليه..

والحمد لله تجاوز مرحلة الخطر..

كنت اليوم عنده وهو يسلّم عليك..

قال: زياد.. أريد منك خدمة..

قلت: أخبرني..

قال: أجّل سفرك..

هل من الممكن أن أثق بك بأن تحل محلي وتساعد معتصماً وسها في هذه الأزمة؟

بقي لدي عشرة أيام وأنهي امتحاناتي وسأكون في دمشق بعدها على أوّل طائرة..

لم يكن بحاجة إلى السؤال فقد كنت أنوي ذلك حقاً..

معتصم أخي أيضاً وهدى أختي.. أما سها؟!

* * *

(٣٣)

الليلة ليلة السابع والعشرين من رمضان..

قرّرت الذهاب إلى المسجد ليلاً.. فصنعت فنجان شايٍ لنفسي وجلست لأشربه..

رنّ الهاتف..

ترى من الذي يتصل الآن في هذه الساعة المتأخرة من الليل؟

حين رفعت السماعة، كان جدي على الطرف الآخر..

أخبرني أنه قادمٌ مع جدتي إلى دمشق غداً..

فوجئت بالخبر.. وسألته: ما الذي استجدّ؟

قال لي: سأحكي لك كل شيء غداً..

خرجت متجهاً إلى المسجد..

وأنا أشعر أن سحابةً مظلمةً تعصر قلبي..

مسجد الزهراء كان ممتلئاً عن آخره..

كنت أشعر أنني بحاجةٍ إلى الدخول إلى مسجدٍ

لا يوجد فيه كثير من الناس، فمشيت باحثاً عن مسجدٍ صغيرٍ بين الحارات الضيقة..

حين بدأنا بالصلاة كانت الإنارة خافتةً وكان صوت الإمام رخيماً وهو يقرأ الآية:

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾ [القصص: ٢٨/٧]..

وبدأت أشعر بالسكينة تملأ المكان..

وعندما سجدنا وأطال الإمام السجود..

بدأت أشعر وكأنني تحولت إلى ذراتٍ صغيرةٍ ذابت في الهواء واختلطتْ مع كل الكون من حولي..

وناشدت ربي أن يذهب الهمّ والحزن عني..

لم أخرج من المسجد إلا بعد صلاة الفجر وأنا أشعر ببشائر العيد تهل من نسمات الصباح الصافية..

وبدأ المطر يتساقط بمحبة..

* * *

(٣٤)

أعددت المكان لاستقبال جدي وجدتي..

وذهبت إلى المشفى لأطمئن على معتصم..

كان الطبيب قد قرر عودته للبيت والتزامه الراحة لمدة أسبوع على الأقل..

كانت هدى تقف مرتبكةً عند قسم المحاسبة وهي تناقش في الفاتورة..

وقفت معها وسألتها: ما المشكلة؟

كانت تطلب تأجيل الدفع..

أخبرتها ألا تقلق..

وأن هناك حساباً بيني وبين جمال..

ذهبت إلى أقرب صرافٍ آلي.. وسحبت المبلغ ودفعت الفاتورة..

حين نقلنا معتصماً إلى البيت جلست معهم قليلاً..

كان معتصم يبدو أحسن حالاً..

حاولت هدى استبقائي.. ولكني اعتذرت..

لأحضر جدي وجدتي من المطار..

نظرتُ إلى سها.. كانت تضع مخدةً وراء ظهر معتصم..

تمنيت لو تنظر سها في عيني.. ولكني انسحبت وأنا متفائل..

قطفتُ بعض الياسمين.. ووضعتُه في منديلٍ قماشي..

وركبت السيارة التي استأجرتها متوجهاً نحو المطار..

وقفتُ أنتظر عند باب الواصلين..

ظهر جدي أولاً بقامته المنتصبة.. ممسكاً بيد جدتي..

اندفعت بين الحشود متدافعاً مع من حولي..

كانت تلك المرة الأولى التي أتدافع فيها مع الحشود..

كنت دائماً أنتظر الحشد ليمضي أولاً ويفرغ المكان حتى أمرّ..

ولكنني هذه المرة كنت مستعجلاً..

ضممت جدتي أولاً..

شممت فيها كل الروائح المحببة بالنسبة إلي؛ رائحة السنين التي قضيتها أتدثر بهذا الحضن.. رائحة عطرها المفضل.. ثم رائحتك يا دمشق..!

قبّلتُ يدها، وفتحتُ أصابعها، ووضعتُ بها المنديل المعبّأ بالياسمين..

وأطبقتُ أصابعها عليه وأنا أنظر إليها.. ها هي ذي شجرة الياسمين العتيقة التي لم تتوقف عن الإزهار يوماً..

ضمني جدي إلى صدره.. وقال: تحققت اليوم أمنيتي؛ أضمّك أنت ودمشق في حضنٍ واحد..

في طريقنا إلى البيت قال: جدتك لم تعد كما كانت منذ تركتنا..

بدأ المرض يتسلل إليها..

قالت لي: خذني إلى بيتي.. أريد زياداً..

أنهيتُ أموري كلها وجمعت أغراضنا في حقائب وسنشحنها إلى هنا..

كفانا غربة..

أمك ستعتني بالبيت في مونتريال ريثما تعود أنت إلى هناك..

عندما وصلنا إلى البيت.. كان أبو محمود بانتظارنا بعناقٍ حارٍّ لجدي ودموعٍ مختبئةٍ في عيونه..

تركتهما يتحدثان، وأمسكت يد جدتي وساعدتها على الدخول إلى البيت..

شدّت على يدي مستوقفة..

وهي تنظر وتتفحص المدخل ثم بدأت تدخل ببطءٍ معتمدةً على يدي وأنا أجاريها في خطواتها..

كانت عيونها تنظر إلى شيء خارج الأشياء..؟

بدأتْ تتلمَّس الجدران من حولها..

خرجنا إلى الحديقة..

وقفتْ مبهورةً تنظر إلى الياسمينة التي تتصدَّر المكان..

وبدأتْ دموعها تسافر بطيئةً على خديها..

قالت: جدك قدّم الياسمينة لي هدية زواجنا..

والمجنونة أزهرتْ في أثناء حملي بأمك..

كل شجرةٍ هنا زرعها جدك لي هدية.. إمّا بمناسبةٍ معينةٍ أو عقب شجارٍ بيننا لمصالحتي..

جدي كان وراءنا يستمع..

اقترب منها وعانقها وقبل يدها.. وهو يقول: ها أنا ذا أحضرتك إلى بيتك..

وهذا زياد جلبته لك..

لقد حققتُ لك ما تريدين..

والآن حققي لي ما أريد: لا تبكي.. ولا تمرضي يا ياسمينة قلبي..

* * *

(٣٥)

البارحة كنت أنا وجدتي وجدي في غاية الانشغال..

فقد أحضر لنا العم أبو محمود حلوى العيد من معمولٍ بالفستق والجوز والتمر..

وأصرّت جدتي على صنع بعض الحلويات بيدها استعداداً لقدوم العيد..

وطبعاً لم يعجبها ما أجريته للمنزل من عمليات التنظيف..

فأعادت تنظيفه بمساعدتي أنا وجدي.. وقمنا بتعزيل المنزل..

لم تكن صحتها الجسدية على ما يرام.. لذلك حاولتُ قدر الإمكان العمل تحت إمرتها..

كنت أشكّ بحدوث شيء ما..

فقد كانت جدتي مختلفة.. ولكني لم أجرؤ على البوح بذلك أو حتى مجرد التفكير به..

سألت أبا محمود عن المحل الذي أحضر منه حلوى العيد.. فدلّني عليه..

فاشتريت بعض علب الحلوى..وتوجّهتُ إلى بيت

معتصم..

فوجئتُ هدى وأنا أضع العلب أمامها..

في حين كانت سها تنظر إليّ بامتنان..

شعرت بالدنيا تدور بي وأنا أتلقى نظراتها المباشرة تلك..

حاولتُ أن أبدو طبيعياً وسألت عن معتصم..

فأدخلتني هدى إلى غرفة نومه..

كان ما يزال تعباً.. ولكنه بدا لي أحسن حالاً..

سألني عن أخباري.. فقلت له: جدي وجدتي يسلّمان عليك..

حادثت جمالاً عندما عدتُ، وطمأنته إلى حال معتصم..

بعد الإفطار.. ذهبنا أنا وجدي إلى المسجد لصلاة التراويح..

وفي حين كنا جالسين ننتظر الإمام ليقيم الصلاة..

قال فجأة: بعد سفرك بقليل.. اتصلت بك نادية تسأل عنك..

لم يكمل.. ولكنني شعرت بفراغٍ هائلٍ يكاد يبتلعني كثقبٍ أسود..

لماذا الآن يا جدي؟؟

لماذا وقد أوشكت على النسيان..

لماذا وقد بدأت أفكر في امرأةٍ أخرى..

وأنوي أن أفاتحها برغبتي الزواج بها..

عادت إليّ تلك الذكريات المجنونة ترهقني وتستنزفني..

ولكن صوت الإمام وهو يقيم الصلاة أيقظني..

عبثاً حاولت إسكاتها..

عبثاً حاولت نسيان تلك العينين الذهبيتين، والشعر القصير الكستنائي..

عبثاً حاولت طوال تلك السنين النسيان..

هل تحاول العودة إلى حياتي بعد كل ما جرى بيننا؟

في تلك الليلة لم أستطع أن أنام.. كانت تسيطر عليّ الذكريات..

نادية ابنة دمشق.. رفيقة طفولتي..

تلك التي قضيت أيام دراستي معها..إلى أن وصلنا إلى الجامعة..

حيث دخلت هي كلية الهندسة.. ودخلت أنا كلية العلوم الإنسانية..

وبدأ التباعد يأخذ مكانه..

ولكنني حاولت جاهداً تجاهل ذلك التباعد..

طوال فترة طفولتنا حاولت نادية دمجي مع المجتمع من حولي..

ولكني كنت محاطاً بتوصيات جدي:

انتبه فأنت عربي ونحن لسنا مثلهم..لنا تقاليدنا وعاداتنا وديننا..

كنت محاطاً بخجلي الشديد في مجتمعٍ شديد الغرابة..

كنت محاطاً بذكريات أمٍّ لا أكاد أراها.. وأبٍ قد هجرني..

حين كنت في صفي الثالث الابتدائي سألتني المعلمة من أين أنا.. فقد استغربت اسمي.. حسبتني يونانياً.. لكوني أسود الشعر غامق العينين..

حينها أخبرتها أنني سوريٌّ..

أتذكر ردة فعلها المشمئزةِ مني..

وقضيت تلك السنة وأنا أشعر بكرهها لي متخفياً وراء تصرفاتها.

تكرَّس في ذهني أنني مختلفٌ إلى درجة أن نادية فهمتني دون أن أعبّر..

وحاولتُ إقناعي أنني مثل بقية رفاقي..

نادية كانت أمها كندية الجنسية.. وكان هذا ما يقف أحياناً حائلاً بيننا..

ولكنها كانت طوال فترة طفولتنا تحاول تجاوز مخاوفي وأوهامي حول اختلافي عن البقية..

حتى بعد عشر سنوات عندما كنا في الجامعة..

كنت أشعر باغترابي ووحدتي مع الجميع ما عداها..

أو هكذا كنت أحسب..

طوال فترة نمونا كان والدها يشجّعها على مرافقتي..

مما سبب له مشكلةً مع زوجته التي كانت تودّ لو أن ابنتها تخالط الأطفال الكنديين أكثر من مخالطتها لي...

ذلك كان يوماً حزيناً بلا شك..حين رأيت نادية يوماً تقف مع عدة شبان وشابات يتضاحكون..

وكنت أعرفهم بأنهم عنصريون متشددون.. فقد عيّروني أكثر من مرةٍ بعروبتي..

وكثيراً ما دبّروا لي المقالب المهينة..

حتى عندما كنت في الثانوية.. كثيراً ما عرقلوا سيري وأوقعوني أرضاً..

أو وضعوا لي بعض الحشرات في خزانتي المدرسية..

وحين صرت في الجامعة كانوا يرسمون على سيارتي بعلب الطلاء عبارات بذيئةً معاديةً للعرب يطالبون فيها بخروجي أنا العربي من بلادهم..

ذلك اليوم كان لديّ موعدٌ معها مساء..

ولكني لم أذهب، وأطفأت هاتفي، واعتكفت في غرفتي..

أرسلت إليّ رسالة إلكترونية تقول:

تاري الحلو ناسي مواعيده

لا عاد مر ولا لوحلنا بيده

كانت تعلم مدى ولعي بأغاني فيروز..

وكانت تحفظها إكراماً لي..

أذكر أنني في تلك الفترة اعتكفت في غرفة جدي الخاصة..

وحاولت إضاعة أحزاني بين صفحات الكتب وألحان الموسيقا..

في طفولتنا كان من البدهي لي أنا ونادية أن نفكّر بالزواج عندما نكبر..

لم أكن حينها أجرؤ على التعبير عن ذلك بصوتٍ عالٍ..

ولكنها سبقتني إلى ذلك مرةً وقالت لي: في يوم عرسنا سنلبس الأبيض أنا وأنت..

ونركب سيارةً مكشوفة السقف بيضاء اللون..

وها أنا ذا اليوم أشعر أن هناك تشابهاً بين ملامح نادية وجمانة..

ما الذي أعادك يا نادية الآن.. وماذا تريدين؟

* * *

(٣٦)

في الصباح الباكر لأول يوم من أيام العيد.. حين كنت قد نسيت أو تناسيت موضوع نادية..

توجهنا إلى المسجد أنا وجدي وجدتي لصلاة العيد..

كان صباحاً ممطراً بالرحمة، وشعرت بالسكينة والمحبة لله ولكل الدنيا..

شعرت بالمساواة مع كل المخلوقات من حولي..

عندما خرجنا من المسجد قلت لجدي: أريد زيارة قبر والدي..

فقال جدي: سأذهب معك..

توجهنا إلى المقبرة..

بائعو الآس كانوا قد تجمعوا على باب المقبرة..

دخلت هناك..

قررت سؤال حارس المقبرة عن قبر أبي.. ولكنني لم أجده..

متجولاً بهدوء.. متحرياً موقع أقدامي.. باحثاً عنه..

مدققاً النظر في شواهد القبور.. باحثاً عن اسمه..

رأيت هيثماً ورياضاً واقفين بجانب قبرٍ ليس ببعيد عني..

خطر للحظةٍ في ذهني أنني سأنتظر مغادرتهم وأقترب من القبر..

ولكن سرعان ما شعرت بقدميّ تتحركان في عزمٍ وتصميم..

متجهاً نحوهما.. واقفاً بجانبهما أقرأ لوالدي الفاتحة.. متجاهلاً نظراتهما المذهولة أو المستنكرة..

انسحب رياض بانزعاجٍ فور وصولي.. أما هيثم فظل صامتاً..

وقفنا عدة دقائق صامتين..

كنت أحبس دموعي في أثناء ذلك..

ثم استدرت إلى هيثم قائلاً: صباح الخير.. كل عام وأنت بخير..

أجابني بابتسامة: وأنت أيضاً..

كنت أتخيل والدي يسمعنا من تحتنا ونحن يسلّم أحدنا على الآخر..

ترى ماذا كان سيقول في موقف كهذا؟..

ربما سيقول: الحمد لله لقد اجتمع ولداي على قبري..؟؟

أمام القبر المجاور كان هناك بعض النساء متشحاتٍ بالسواد..

يقرأن سورة ياسين بصوتٍ مسموع..

وأجهشت إحداهن بالبكاء عندما وصلن في قراءتهن إلى الآية:

﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ۝٥٨﴾ [يس: ٣٦/٥٨]..

كنت ما أزال واقفاً أنظر إلى حزنهنّ على الغالي أو الغالية وأرثي نفسي..

على الأقل هنّ رأوه..

أو لعلهنّ شممن رائحته الصباحية..

أو سمعن صوته وحبسنه داخل الذاكرة..

هن يبكين الذكريات.. وأنا حتى لا أملكها..

أخي يقف بجانبي وأنا أتساءل بحسد:

ترى كم مرةً أتى هو وأبي إلى مكانٍ كهذا..

ووقفا جنباً إلى جنبٍ كما نقف هنا الآن.. وقرأا الفاتحة؟..

كم مرةً خطت خطواتهما تباعاً على الرصيف؟..

كم مرةً تعلقت أنفاسهما بالهواء وتشابكت هناك عالياً؟..

أحسست بيد حنون تمسك بكتفي..

لست مستعداً لمعانقة أحد.. فربما لن أستطيع منع نفسي من البكاء..

استدرت.. أهذا أنت يا جدي؟

أأنت هنا.. دائماً تكون بقربي في أتعس المواقف..

كلما بحثت عن أبي أجدك....

جدي الذي أنهكته السنون.. الذي لم يعد يستطيع إلا أن يلهث عندما يمشي..

جدي الذي تبنّاني حتى عندما تخلى عني أبي وتجاهل وجودي كلياً..

عندما ضمني..

أحسست بالصمت والسكينة من حولي..

وكأن العالم كله من حولي.. أحنى رأسه إكباراً لحضن أبى إلا أن يحتضنني..

حتى عندما كنت أرفضه باحثاً عن غيره..

جدي وقف قارئاً الفاتحة رافعاً يديه بابتهال..

قدماه تجاوران قبر صديقه ناظراً إلى الأرض..

باحثاً بنظراته بين ذرات الرخام المتلاصقة عن أي أثرٍ يمكن أن يكون قد خلّفه أبي...!

رائحة الموت اخترقت خياشيمي..

وبدأت أفكر: أنا الآن أقف على طرف الجانب الآخر..

بصحّتي الجيدة وشبابي الرائع..

ما الذي سيتبقى من كل هذا حين أصبح تحت التراب؟؟؟

التفت جدي إلى أخي هيثم وسلّم عليه وصافحه وهو يقول: الله يرحم أباك.. من خلّف ما مات..

في المنزل بين رائحة القهوة المرّة وصحن الحلويات..

وجدتي التي كانت تمسك بيدها القطع لتضعها على الصحون..

وهي تقول: كرابيج الجوز تحبها أمك..

كنت أوصي جدك بإحضارها خصيصاً لها..

عاودني الحزن وأنا أتذكر أمي..

كيف يمكن للعيد أن يكون مناسبةً دائمةً لانبثاق الحزن من أعماقي؟!

* * *

(٣٧)

ذهبت إلى معتصم لأهنئه بالعيد..

بيتهم ممتلئٌ بالضيوف..

شعرت بالغربة..

منذ أيام كنت أنا قريبهم الوحيد..

حين كان في المشفى لم يأت لزيارته أحدٌ على حد علمي..

والآن.. هل يحاول أقاربهم أن يغطّوا على تقصيرهم؟..

لست أدري..

حين هممت بالانصراف رافقتني سها إلى الباب..

لست أدري كيف أدرت وجهي إليها..

وقلت بسرعة: سها هل تتزوجينني؟..

وشعرت بعدها بالغباء وأنا أنظر إليها أنتظر الجواب..

هي كانت مصدومة..

ولكنها بعد لحظات سألتني: لماذا؟

سمعت صوت هدى تناديها..

قالت: سنتحدث لاحقاً..

في غرفتي كنت أتحرك وأنا أشعر بثقل ذكرى وجهها المصدوم تتعالى في ذاكرتي..

وبعد.. لماذا فعلت ذلك؟

أحقاً أنوي الزواج بها؟ لماذا؟

وهل باب البيت مكانٌ مناسبٌ لطلب الزواج؟

أكان الأولى أن أخبر معتصماً أولاً؟

أين الخطأ في هذا كله؟؟؟

ولكن لا يجب التراجع الآن..

* * *

(٣٨)

لم أجد بداً من مفاتحة جمال بالموضوع..

فقد كان هو الشخص الوحيد الذي يمكن أن أبوح له بشيء كهذا..

وهكذا اتصلت به في مونتريال..

عندما أخبرته صمت طويلاً..

سألني بعدها: أأنت متأكد؟؟

قلت: طبعاً.. لست أدري لم قلتها بارتجاف..

قال: على كل حال سآتي الأسبوع المقبل.. هل تريد شيئاً من هنا؟؟

قلت له كالعادة أول فكرةٍ خطرت في بالي:

جمال أحضر لي أوراقي وشهاداتي..

فيبدو أنني سأمكث هنا..

بدا لي صوته المدهوش غريباً.. وهو يقول: أحقاً.. أأنت جاد؟؟

كنت أعرف ذلك منذ اللحظة الأولى التي وطئت فيها أقدامي على ترابك يا دمشق..

أجل كنت أعرف أنني سأبقى هنا..

(٣٩)

بقيت تحت تأثير الخزي الذي طرأ علي منذ طلبت من سها الزواج..

فقررت القيام بخطوةٍ مجنونةٍ أخرى..

كنت خائفاً من الدخول في تلك الحلقة المفزعة التي تتملّكني عندما أتصرف بشكل مرتجل سريع.. فأتخبط أكثر بالتصرفات المجنونة محاولاً نسيان الموقف الأول المؤلم..

هل أخاف من رفض سها لي وهي تكبرني بعدة أعوام؟؟

أم إنني أخاف من نفسي.. أن أكون قد تسرعت بالارتباط..

وأنا ما أزال غير مؤهلٍ للزواج؟؟

أحقاً أحبها؟؟

أم لعلني معجبٌ بها فقط..؟

أم إنني أكبر فيها تفرغها لأولادها..؟

أم لعلني رسمت لها صورةً في خيالي منذ زمن وعشقت تلك الصورة..!!

قررت أن أفعل شيئاً يدور في بالي منذ أيام.. ينسيني موقفي الأخير معها..

اليوم هو ثالث أيام العيد.. وهيثم ما يزال في عطلته..

اتصلت بسماء مباركاً لها بالعيد وطالباً منها رقم هيثم في بيته..

اتصلت بعدها بهيثم.. أجابني على الهاتف صوت أنثوي..

بعد أن طلبته كنت أفكر..

لست أدري عن عائلة أخي هيثم أي شيء..

لا أعرف زوجته أو عدد أولاده..

أسماءهم..

هل هم ذكور أم إناث؟؟

أجل، لست أدري أي شيء عن أخي..

ياللسخافة..

قطع لي تأملاتي صوته البارد على الهاتف: من؟؟

- أنا زياد.... وحين خفت ألا يعرفني.. أردفت قائلاً: الصافي.. كيف حالك؟

- أنا بخيرٍ وأنت؟ قالها بنبرة تحفظٍ واستغراب..

- أعرف أن وقت اتصالي ربما لا يكون مناسباً

فأنت منشغلٌ مع عائلتك كما يبدو.. ولكن أردت أن أفهم منك؛ علمت أنكم تنوون بيع بيت والدي..

ففكرت أنني أولى به من الغرباء.. وأنا جاهزٌ لأي مبلغٍ تطلبونه؟؟

ساد صمتٌ ثقيلٌ بيننا..

أشعرني بمدى سخافتي واندفاعي..

وأنا أفاتحه في موضوعٍ كهذا على الهاتف.. وفي ثالث أيام العيد..

صوته جاءني بعيداً جداً وهو يسألني:

- لم ننو بيعه.. من أخبرك؟

- علمت من مصادري أن أخاك رياضاً عرضه للبيع..

طال انتظاري لجوابه فقلتُ: عندما تقررون بيعه لديك رقم هاتفي..

سلامي للعائلة..

لست أدري لم خطر في ذهني بعد انتهاء المكالمة أنه غاضبٌ جداً..

أو لعله رمى السماعة متمنياً وجودي قربه ليصيبني بها..

كان جدي يتابع الأخبار عندما جلست بجانبه وبدأت أتابعها معه..

ولكني شردت مفكراً..

كيف يمكنني تأمين مبلغٍ كبيرٍ ثمناً لبيت أبي..

يجب أن أبيع شقتي هناك في مونتريال وأشيائي هناك..

وأضع فوقهم المبلغ الذي ادخرته من رواتبي التي تقاضيتها عن عملي محرراً في المجلة..

وعملي مدرّساً مساعداً في الجامعة..

وربما لن يكفي المبلغ..

ولكنني لن أطلب المساعدة من جدي.. قولاً واحداً..

خاطبت جدي: أفكر بشراء بيت والدي من إخوتي..

بقيت عيناه معلقتين على الشاشة وهو يستمع..

في حين كانت عيناي ترمقانه بطرفهما..

استدار وهو يطفئ التلفاز بكبسة زر..

نظر إليّ طويلاً ثم قال: هذا الذي تجلس فيه الآن هو بيتك..

فلم تريد شراء بيتٍ آخر؟

ها هو ذا يواجهني كعادته..

وهو يعتبر نفسه أبي ويستغرب تحرّقي لذكرى أبي في حين هو موجود..

انعقد لساني وأنا أنظر إليه مفكراً في منطقه...

قام متوجهاً إلى النافذة ناظراً خلالها كعادته كلما أراد إخفاء انفعالاته.

بنبرة ساخرةٍ لاذعةٍ لسعتني في الأعماق.. وبتهكمٍ حزينٍ بدا في صوته..

قال:

إنه بيت أبيك.. ولك حق فيه.. فلم تريد شراءه؟..

لم لا تطلبه من إخوتك بدلاً عن حصتك في الإرث؟

قمت إلى غرفتي.. وأنا أشعر بألمٍ عميقٍ ينهض كعملاقٍ ليتملّكني.. ليغضبني..

ها هو ذا يسخر مني لأنني بحثت عن إخوتي..

ومع ذلك فهم زاهدون في علاقتهم بي..

لم أنا هنا؟ ماذا أفعل هنا؟؟

لم لست في زمنٍ آخر.. أو حتى مكانٍ آخر؟؟

هذا ليس مكاني.. أريد أن أهرب..

صوته ورائي: زياد تعال.. كم تريد من المال؟.. سأشتريه لك..

ها هو ذا جرحٌ آخر..

وكأنني ما أزال صغيراً وليس لدي ما يكفيني من النقود..

لطالما منعني من دفع قرشٍ واحدٍ على مصروف البيت..

محتجاً بأنني يجب أن أوفّر نقودي التي أكسبها لزواجي وتكوين عائلةٍ لي..

وها أنا ذا على عتبة عامي الثامن والعشرين..

وما زال يعاملني كطفلٍ في العاشرة..

لبست سترتي واندفعت تجاه الباب.. كعادتي في الهروب والانغلاق على نفسي..

كان صوته ورائي:

زياد تعال.. قلت لك تعال..

استفاقت جدتي وسمعت صوتها يهتف..

خيراً إن شاء الله.. بسم الله الرحمن الرحيم.. ما الذي يحدث..

صفقت الباب ورائي..

كان الجو مثلجاً..

جمانة تقف على باب البناء مع صديقتها ربما..

تجاهلتها تماماً وأكملت طريقي..

متخيلاً سخرية سها من طلبي..

لعلها تقول: زياد أتريدني أن أتحمل مسؤولية طفلٍ آخر؟؟

متخيلاً نادية تعبث في إحدى حانات مونتريال مع شلةٍ من الشباب والشابات..

كل ما يمكن أن يكون مؤلماً ومهيناً تخيّلته في هذه اللحظة..

كنت أمشي شاعراً بموجات الغضب تهيج في أعماقي..

وجدت نفسي أمام بيت والدي..

وبكل الحقد والغضب الذي أملكه أمسكت بأول شيء وجدته أمامي؛ حجر كبير أمسكته ورميته على النافذة..

كان صوت تكسّرها من أجمل الأصوات التي سمعتها في حياتي..

غاضباً من الحياة ناقماً على العالم..

كنت أشعر بالدم ينبض ساخناً في رأسي..

ماشياً على غير هدى وأنا أرى كل خطوةٍ أدوس بها الأرض تثبت نقمتي وحنقي على هذا العالم..

تمنيت لو كانت السيارة معي.. لكنت قدتها بعيداً.. بسرعةٍ هائلة..

ولكنني تذكرت العهد الذي قطعته لجدتي بعد

اشتراكي بسباقٍ للسيارات ووقوع حادثٍ لي تسبب في كسر ساقي وذلك منذ ثمان سنوات..

عاهدتها يومها ألا أقود بسرعةٍ مهما حدث..

حين بدأت أشعر بالمطر البارد يلسع جلدي..

كان دمي بدأ يبرد وأفكاري بدأت تهدأ..

ما الذي سأفعله؟؟

هل سأغادر دمشق؟؟

أم سأطلق النار على إخوتي واحداً واحداً؟؟

أم لعلي سأدمّر قبر أبي.. وأشعل الحريق في بيته؟؟

ربما سأهجر جدي وجدتي.. لأعيش بمفردي..

وأتنكر بزي درويشٍ وأسكن في الجامع الأمويّ..

وأكتب مذكراتي؟؟

لست أدري ما الذي سأفعله؟؟

حاولت الهروب من أفكاري اللعينة والاندماج في الضجيج من حولي..

وقد تداخل صوت المطر المنسكب مع ضجة الناس..

سألت نفسي: إلى أين يمكنني الهروب حقاً..؟؟

بدأت الذكريات تتقاطر إلى ذهني تباعاً..

لطالما كان لدي شعورٌ في طفولتي أنني مهجورٌ أو منبوذ..

وأن هناك شيئاً ما ينقصني..

تلك الفجوة الهائلة التي كانت بداخلي..

والتي كان لدي رعبٌ من أن تتمكن يوماً ما من ابتلاعي..

أول سؤالٍ وجّهته في عمرٍ مبكرٍ إلى جدتي: أين أبي؟..

ولكنها زعمت أنه مسافرٌ لعملٍ ما..

وبعدها شعرت بالهمسات التي تبادلتها مع جدي..

ثم سألتها بعد فترة: جدتي هل أبي ميت؟

ولكنها أنكرت ذلك وحوّلت الحديث إلى أمورٍ أخرى.. وبعد..

إلى أن جاء يوم.. حين كنت في العاشرة..

أعدت السؤال لعلهم يخبرونني الحقيقة ولو من باب التغيير..

ثارت ثائرة أمي يومها وأخبرتني أن أبي لديه عائلةً في مكانٍ آخر..

زوجةً وأولاد..

وأنه لا يأتي لأنه لا يحبني.. ولا حتى يحبها..

وأنني يجب أن أنسى هذا الموضوع نهائياً.. ولا أذكره أو أسأل أحداً عنه بعد الآن..

أدرك الآن الفزع الذي شملني يومها.. وأنا أرى تلك الفجوة السوداء التي في داخلي تتسع وتكاد تبتلعني..

حين بدأت أفكر في عمرٍ متأخر..

أين هي أمي ولم لا أراها إلّا نادراً؟؟

لم هي مشغولةٌ مع صديقاتها وعالمها الخاص..

لم لم تربّني هي بدلاً من جدتي؟؟

أليست هي أمي؟؟

كانت تلك الفجوة قد ابتلعتني بالفعل..

وبدأت عصر الشغب لألفت نظرها..

لأسبب لها الألم مثلما كانت تسببه لي بتجاهلها وغيابها..

كان جنوني في مراهقتي هو لامبالاتي..

هو اعتراضي على كل شيء..

هو شجاري الدائم معها..

لكن ذلك لم يؤثر فيها على الإطلاق..

فقد كانت قد التقت زوجها الحالي وقررت الزواج به متجاهلةً وجودي تماماً..

ولكني ومع ذلك كلّه.. كنت أدرك أنني مهما حاولت الجموح بعيداً..

هناك خطٌّ آسرٌ لا يمكنني تجاوزه في حياتي..

ذلك الذي رُبّيتُ عليه منذ خروجي للحياة..

وكنت مطمئناً لوجوده حامياً لي..

واكتشفت بعدها أن كلّ الغضب والانتقام الذي كنت أحاول إيلامها به..

كان يؤلم أعزّ شخصين إلى قلبي: جدي وجدتي!!

* * *

(٤٠)

بحالة من الضياع كنت أمشي تحت المطر..

في حين كانت تجول تلك الأفكار المدمّرة في رأسي..

بدأت أشعر بالتعب والإعياء..

وفكرت في أي مكانٍ جافٍّ دافئٍ يمكن اللجوء إليه..

توجهت إلى أقرب مكان.. كان مسجداً مضاء...

خالعاً حذائي..حاملاً إياه..

على بابه جلس درويش يمسك بعصا..كان يترنم ببعض الكلمات..

وقفت أنظر إليه وأحاول تمييز ما كان يقول..

ألا كل شيء... ما خلا الله... باطل...

نظر إليّ وسدّد عصاه حتى التصقت بسترتي وصرخ:

ألاااااا كل شيء ماااا خلاااا الله باااااااطل..

ألاااا كل شيء مااااا خلاااا الله زاااااااائل..

دخلت متألماً.. شاعراً بالخزي من نفسي..

لم يكن هناك إلّا شخصٌ أو شخصان..

جلست في الزاوية وأسندت رأسي للجدار..

منهكاً.. مبللاً..

شاعراً بثقل الحياة يجثم على صدري..

أغمضت عينيّ..

متمنياً نسيان كل شيء وفقدان الذاكرة..

متمنياً أن أفتح عينيّ..

وأكتشف أن كلّ ما حدث لي هو مجرد كابوس..

وأنني أعيش بسعادةٍ بين عائلتي..

فتحت عيني مقلباً نظراتي في السقف..

كنت أجلس تحت القبّة المزينة بالزجاج الملون..

شعرت السكينة والسلام يتسللان إليّ..

إنه بيت الله..

جئت إليك يا ربي..

جئت إلى بيتك..

أرجوك يا ربي أنزل عليّ رحمتك..

لم أشعر بنفسي حين احتضنتني تلك السكينة..

وسقطت في النوم..

شعرت بيدٍ تهزّني.. نظرت من حولي..

كان يوقظني بهزةٍ من يده.. رجل يمسك بسبحة..

قال: قم يا بني فتوضأ وصلّ معنا الفجر..

لم أدرِ كم من الوقت نمت..

ولكن من المؤكد..

أن تلك اللحظات أو الدقائق أو الساعات التي نمتها..

كانت مهدئةً لأعصابي لدرجةٍ كبيرة..

قمت فتوضأت وأنا أسمع ذلك الرجل الذي أيقظني..

وهو يؤذّن للفجر بصوت يخترق أعماقي..

حين وقفنا متراصين..

كنا سبعة وقد التصقت أكتافنا وأقدامنا..

متجهين لإلهٍ واحد..

نصلي مدركين مدى حاجتنا وضعفنا وذلّنا له..

كنت أبكي في حين الإمام يقرأ:

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ [الإنسان: ٧٦/١-٣]..

* * *

(٤١)

أفقتُ على صوت الهاتف يرنّ..

بدأت أستوعب ما حدث البارحة..

منذ زمنٍ طويلٍ لم أصب بنوبة غضبٍ مثل البارحة..

حين عدت مبللاً..

عرفت أن جدي كان بانتظاري مع أني لم أره حين دخلت المنزل اليوم صباحاً بعد صلاة الفجر..

ها أنا ذا أستيقظ وأنا أشعر بصداعٍ مؤلمٍ في رأسي..

سمعت دقاتٍ خفيفةً على الباب..

بعد دقائق مدّ جدي رأسه من وراء الباب..

قال: صباح الخير.. معتصم يسأل عنك..

أجبته: صباح النور.. متجنباً النظر في عينيه..

محاولاً تناسي ما حدث بالأمس..

رفعت السماعة وأنا أتساءل إذا كانت سها قد أخبرت معتصماً عن طلبي الزواج بها..

سألني معتصم أين أنا هذه الأيام..

وطلب مني أن أمرّ عليه لأمرٍ مهم..

حين كنت أرتدي ملابسي كنت أفكّر ما الذي ستقوله سها لي إذا رأتني؟

هناك في بيته خرج لاستقبالي..

طلبت منه ألا يتعب نفسه..

جلسنا في غرفة الجلوس وقد أُغلق الباب علينا..

طلب مني أن آخذ اللوحة التي أعجبت عروبة وأوصلها إليها..

ثم أوصل إليها سلام أبيها وكلماته قبل أن يموت..

صمتُ وأنا أفكر أن الأمر برمّته ليس لي علاقةٌ به..

ولكنه قال: أنا الآن مريض..

ولا أعرف هل أشفى أو لا..

أخبر عروبة بالأمر وإذا أرادت أن تراني لتسألني عن والدها فأحضرها إلى هنا..

ليس لديك مانع.. أليس كذلك؟

حين حملت اللوحة ووضعتها في السيارة كنت أفكّر ما الذي يدفعني إلى فعل ذلك؟

لعله الفضول الذي سيسوقني إلى كتابة روايةٍ جديدةٍ تساعدني على تجاوز هذه المرحلة من حياتي..

لطالما كانت الكتابة.. هي دوائي الذي يجعلني أتقلّب على آلامي وأحزاني..

كنت أنظر في البطاقة التي أعطاني إيّاها معتصم..

والتي فيها عنوان محل التجميل الذي تديره عروبة..

حين وصلتُ.. دخلتُ باحثاً بعينيّ عنها..

جاءتْ إليّ فتاةٌ وسألتني: أهلاً وسهلاً بك.. كيف أساعدك؟

ونظرت مسرعةً إلى يدي اللتين تحملان اللوحة بتساؤل..

أجبتها: عفواً؛ أنا أبحث عن السيدة عروبة النجار..

تحلّقت حولي عدة فتيات.. قد صبغن وجوههن بمختلف الألوان..

كنت أبحث في عيونهنّ عن أي بادرةٍ للحياة.. أيّ بريق..

كلهنّ كنّ كدمى ملونةٍ.. ولكنها فاقدة للحياة..

من قال إن عيوننا هي نوافذ أرواحنا.. كان على حق..

الصور على الجدران.. وجوهٌ ملونة.. عيونٌ ملونة..

كلها تعبر عن إنسانٍ فاقدٍ لإنسانيته..

شعرت بالحزن.. وتذكرت فيروز حين غنّت:

أسامينا شو تعبوا أهالينا

اختلقوها وشو افتكروا فينا

الأسامي كلام.. شو خصّ الكلام..

عينينا هنن أسامينا

حين جاءت عروبة بعينيها الحزينتين المختبئتين وراء وجهٍ ملون..

سلّمتها اللوحة..

وسألتها: هل بإمكاني التحدث إليها بمفردنا؟؟

قادتني إلى غرفة مكتبٍ صغيرة.. وأغلقت الباب وراءنا..

بعيونٍ متسائلةٍ ناولتني ثمن اللوحة وهي تنتظرني لأقول ما أريد قوله..

كنت متردداً لا أعرف كيف أبدأ..

ابتسمتْ مشجّعةً وهي تقول: أنا مرتبطة.. ربما لم تنتبه إلى خاتم الخطبة الذي أضعه.. ومدت يدها لتريني إيّاه..

انعقد لساني.. وأنا أفكر: ما الذي أوحى لها أنني أريد الارتباط بها؟؟

هل قلت شيئاً أوحى لها بذلك..

أو ربما بدرت مني حركةٌ ما تشير إلى أنني أفكّر فيها على هذا النحو؟؟؟

كانت تنظر إلى آثار الصدمة على وجهي..

حين قررتُ الدخول في الموضوع مباشرة:

السيد معتصم طلب مني التحدث إليك بدلاً عنه.. فهو مريضٌ جداً..

إنه يريد مني إيصال رسالةٍ إليك..

رفعتْ حاجبيها بنظرةٍ غريبةٍ إليّ.. فأكملتُ:

- تعرّف السيد معتصم بوالدك في المعتقل..

وبقيا معاً في المكان نفسه لمدة سنواتٍ وحضر وفاته..

وطلب منه والدك إيصال رسالةٍ إليك.. إن خرج من السجن..

طلب منه إخبارك: أنه عاش من أجل مبادئه ومات من أجلها..

ويطلب منك والدك ألا تحزني عليه.. فهو لم يحزن على نفسه..

وإنما خاف أن تكوني قد حزنت لفراقه.. إنه سعيدٌ الآن.. حيث هو..

أحسستُ وكأنني خطيبٌ أُلقي عظةً ما.. أو تلميذٌ يُسمِّع الدرس..

كانت كلماتي تخرج بسرعةٍ وحياديةٍ مني وهذا ما أحزنني..

فقد كنت حضّرت ما سأقوله لها بطريقةٍ مختلفة..

لطالما انتظرت هذه اللحظة لأراقب تعابير وجهها وردّات فعلها على خبر كهذا..

وها أنا ذا أقوله لها بطريقةٍ سريعةٍ خطابيةٍ دون مراعاةٍ لمشاعرها..

محاولاً تدارك سوء الفهم الذي وقعتُ فيه.. حين حسبتني معجباً أو طالباً للزواج..

كنت صامتاً أتأملها..

فقد قامتْ وأشعلت سيجارةً وأدارتْ ظهرها..

ولم يعد بإمكاني رؤية وجهها.

أدركتُ أنها تبكي حين سمعتُ صوتها المبحوح يخاطبني: إذا لم يكن هناك شيء آخر..

فبإمكانك الانصراف..

قمت لأنصرف خارجاً من الباب..

فاقداً أيَّ أملٍ أن أستطيع تسجيل مشاعرها يوماً..

انتهت الحكاية بطريقةٍ لم أتوقعها..

توجهت مباشرة إلى بيت معتصم.. لأخبره سريعاً وأنتهي من هذه القصة التي لم تسر كما أرغب..

واقفاً على باب بيت معتصم أضرب الجرس..

ومازالت تعابير وجه عروبة ملتصقةً بذاكرتي..

سرعان ما شهقت فرحاً؛ فقد كان آخر شخصٍ أتوقع أن يفتح لي الباب..

كان جمال..

عانقته مسلّماً وأنا أشعر أنني غبت عنه أعواماً..

وأن كثيراً من الأحداث قد مرّتْ عليّ منذ رأيته آخر مرة..

مرت لحظاتٍ عانقتُ فيه ماضيّ.. وأنا أقول له: أعانق فيك زياد ما قبل دمشق..

فنحن نعرف أنفسنا من خلال عيون أحبائنا وأصدقائنا..

من ورائه..

كانت سها واقفةً تنظر إلينا بفرح..

ولكني حالما رأيتها تراجعتُ إلى الوراء خجلاً مرتبكاً..

أظن أن جمالاً شعر بخجلي..

فسحبني إلى الداخل وأغلق الباب.. وهو يقول: تعال يا رجل..

اشتقت إليك كثيراً..

سألته: متى أتيت؟؟ لم تخبرني لأستقبلك في المطار..

قال: أردت أن أجعلها لكم مفاجأة..

خطوتُ داخلاً وسلّمتُ على سها الواقفة التي لم ترفع نظراتها عني..

مما زادني خجلاً..

سألتُ عن معتصم فجاءت هدى ممسكةً بذراعه تساعده.. وابتسامته تملأ وجهه..

جلسنا في غرفة الجلوس..

وسألت جمالاً: متى أتيت إلى هنا؟.. كنت هنا صباحاً ولم أجدك..

أجابني: وصلت بسيارة أجرة بعد خروجك بدقائق..

التقت نظراتي بنظرات معتصم.. وسألني: هل سارت الأمور على خير؟

أجبته: نعم؛ أوصلت الأمانة.. وهذا هو ثمن اللوحة..

سرح بعيداً وهو يمسك بالمال..

أما جمال فقد جلس بجانبي.. سألته عن امتحاناته.. فطمأنني..

سحبني بعدها إلى الشرفة.. تلك الشرفة التي تطل على قاسيون..

وانهال علي بالأسئلة.. ولكني أسكتّه بكلامي قائلاً:

سأسألك سؤالاً واحداً لم أجد له إجابة..

كيف استطعت الابتعاد عن دمشق مدة خمس سنوات؟؟

أجابني بتهكمه المعتاد: وكيف استطعت أنت الابتعاد عن مونتريال مدة ثلاثة أشهر؟؟

قلت له: أنا لا أمزح..

قال: دعنا من هذا الآن.. هل يعلم معتصم بطلبك الزواج من سها؟؟

قلت: لا أدري، أنا لم أخبره.. هل أخبرته سها يا ترى؟؟

قال: لا، على حد علمي.. ولكن فيم تتهامسان أنت وهو؟..

وما هي المهمة التي أرسلك بها؟؟

دخلتْ سها إلى الشرفة وهي تحمل صينية العصير..

لست أدري هل كنت أنوي الهروب من نظراتها..

أم من أسئلة جمال..

أم أردت فقط الاقتراب من حاجز الشرفة لأستمتع بمنظر الفضاء المعانق لقاسيون؟

ربّت جمال على كتفي هامساً في أذني: سها تريد التحدث إليك وحدك..

سأترككما وحدكما قليلاً.. زياد؛ لا تتهور كعادتك..

كانت تجلس.. وقد تورّد وجهها..

كنت أنظر إليها متمنياً لو تكون لي ريشة رسام لأحفظ تلك اللّحظة..وأخلّد صورتها بحجابها الأبيض الناصع.. وملابسها المحتشمة..

وعينيها اللامعتين اللتين تعكسان قوة شخصيتها..

جلستُ مقابلاً لها وأنا أنتظر أن تبدأني بالحديث..

وقد بدأتُ أسمع دقات قلبي تعلو على أي صوتٍ آخر..

قالت: هل لي أن أسألك سؤالاً أولاً؟

هل ترغب في الزواج بي حقاً..؟

لأننا أحياناً كثيرةً نحسب أنفسنا نريد من الحياة شيئاً محدداً..

فإذا بنا نهرب من أمر آخر..

صمتتْ قليلاً ثم تابعتْ: يخيّل إليّ أنك هاربٌ من شيء ما..

وأردت الزواج بي لتنسى ذلك الأمر..

زياد، أنا أحترمك جداً..

ولكني أكبرك بعدة سنوات..

ثم إنني متزوجةٌ ومطلقة..

كل تلك الأمور تجعلني أشعر بمدى احترامك لي.. وإعجابك بشخصيتي..

والذي ربما اختلط عليك فحسبت أنك تريد الزواج بي..

هل أنا محقة؟؟

ساد صمتٌ بيننا..

كنت أسأل فيه نفسي: أحقاً أهرب من شيء ما؟

وكيف استطاعتْ هي أن تشعر بذلك..؟

آه.. ماذا يمكن أن أقول لك يا سها؟؟

لن أستطيع أن أقول لك للأسف.. إنني أبحث عن أمي فيك..

لن أقدر على رفع صوتي عالياً لأقول: إنني أغبط ابنتيك على محبتك واهتمامك..

وأتمنى لو أكون جزءاً من عائلتك الصغيرة..

عاودني صوتها:

زياد، ما الذي دفعك إلى طلب الزواج مني؟؟ أرجوك أخبرني الحقيقة..

تكلمتُ لأول مرةٍ بصوتٍ خفيض: حسبت أننا يناسب أحدنا الآخر..

فأنت بإمكانك مساعدتي على تجاوز الحياة..

أما أنا فبإمكاني مساعدتك على تربية بناتك.. بصراحة أنت أمٌّ مثالية.. وهذا أثر فيّ كثيراً..

التقت نظراتنا لأوّل مرةٍ منذ أن جلستُ أنا وبدأتْ هي الكلام..

كانت تنظر إليّ بحنان.. وهي تقول: أشكرك من كل قلبي على بادرتك اللطيفة..

ولكني لست بحاجةٍ إلى المساعدة.. فأنا سأعمل وسأربي بناتي..

انسحبتُ بهدوء.. وأنا ممتنٌّ لمدى وعيها وتهذيبها..

كنت أسمع خطواتي ترتطم بأرض الشارع..

وأنا أقول لنفسي: حقاً إنّك هاربٌ كبيرٌ يا زياد..

* * *

(٤٢)

حين عدت إلى البيت.. كانت جدتي تعبة.. والطبيب يفحصها..

وحين خرج.. قال: إنه الزهايمر..

بين غيوم الحزن التي غمرتني..

بدأتُ أتذكر كثيراً من تصرفاتها التي لم أكن أجد لها تفسيراً..

حين كانت تستيقظ صباحاً وهي تنادي: هناء حبيبتي تعالي لأصنع لك الفطور..

أو تسألني.. وهي تعقد حاجبيها:

هل رأيت زياداً الصغير يلعب خارجاً؟؟

كنت أفسّر كل حادثةٍ على أنها مبالغةً في حبّنا أنا وأمي..

ولم أدرك أنها أعراضٌ لمرضٍ خطير..

أو لعلنا نتجاهل أو نتناسى ما يمكن أن يشكّل تهديداً لنا..

كان جدي ضائعاً في حزنه.. وكأنه في عالمٍ آخر..

كنت أنظر إليه وأدرك أنّه يشعر بالحزن لقرب النهاية..

كانت تخطو بخطا حثيثةً إلى نسيان الواقع والعيش في الماضي بكل مشاعره وعواطفه..

بدأ يفقد رفيقة عمره تدريجياً..

ليحتل مكانها صبيةً صغيرةً همومها كثيرة.. ولكنها لا تدرك ما يدور حولها..

ولا بد أن الموقف الأخير بيننا.. ساهم في زيادة غربته وهو يراني محاولاً الخروج من هذا المكان باحثاً عن أبي الضائع..

تذكرت فيلماً لطالما أبكاني كلما شاهدتُ نهايته: سائق السيدة دايزي..

في غمرة ذلك الحزن..

جاء جمال ليراني ويسلّم على جدي وجدتي وأحضر لي أوراقي التي طلبتها منه..

حين جلسنا وحدنا في غرفة الجلوس.. قال: سألتني عنك نادية..

قبل أن آتي بيومين إلى دمشق.. دقتِ الباب.. وسألتني عنك..

انتظر ليرى ردّة فعلي.. فسألته: وماذا قلت لها؟؟

قال: هي تعرف بقدومك إلى دمشق فقد أخبرها جدك..

أخذتْ عنوانك هنا.. وقالت إنها مسافرةٌ إلى دمشق قريباً..

صعقتني المفاجأة وأنا أستمع لكلماته: نادية ستأتي إلى دمشق؟؟

ياللغرابة!!

في لقاءاتنا الأخيرة بدا واضحاً لي أنّها تحاول التّنصل من جذورها العربية ، أو السورية..

فما الذي يمكن أن يأتي بها..؟

نادية هنا في دمشق..

جملة تصلح بالنسبة إلي لتسمية قصةٍ من قصص الخيال العلمي..!!

* * *

(٤٣)

سألتني جدتي: أين زياد؟

هل ذهب إلى مدرسته..؟

قلت لها: جدتي أنا زياد..

قالت: نعم طبعاً عرفتك..

سألني جدي: ماذا تنوي أن تفعل؟؟

قلت: أفكّر أن أقدّم أوراقي للجامعة.. وأعمل أستاذاً جامعياً هناك..

عاودت جدتي السؤال: أين زياد؟ هل رآه أحدكما يعود من المدرسة؟؟

أجابها جدي: ها هو ذا زياد أمامك يا حبيبتي.. ألا ترينه؟

قالت: آه نعم..!

قال جدي: صديقي من أيام الدراسة قد فتح جامعةً خاصةً هنا.. سيرغب في تعيينك، خاصةً أنك حائزٌ على عدة شهادات..

سألتْ جدتي: هل مرّ زياد من هنا؟؟

أمسك جدي بيدها بحنان وهو يقول: تعالي ارتاحي في السرير وعندما يأتي زياد سأخبره أن يأتي إليك..

(٤٤)

شيء ما جعلني أهبّ واقفاً من نومي..

صورة ذلك الدرويش الذي كان جالساً على باب المسجد.. وهو يدفع بعصاه في صدري..

ويقول: ألا كل شيء ما خلا الله باطل..

كنت أسمع صوته يتردّد وأنا نائم..

واستيقظتُ فزعاً عندما رأيته يشرع في ضربي وهو يردّد جملته..

قمت فغسلتُ وجهي.. وارتديت ملابسي.. وأغلقت باب المنزل بهدوءٍ ورائي..

لست أذكر المكان بالضبط..

ولكني تذكرت اسم المسجد..

لم يكن البرد شديداً تلك الليلة..

حين وصلتُ هناك..

كان مكانه فارغاً، فخلعت حذائي ودخلت آملاً أن يأتي بعد قليلٍ فأسمع صوته..

كان جالساً هناك داخل المسجد.. وقد أحنى رأسه على صدره وغفا..

لم يكن هناك أحدٌ غيره إلّا المؤذن جالساً يقرأ القرآن..

اقتربت منه وجلست بجانبه..

فرفع عينيه عن المصحف وابتسم لي..

أسندتُ رأسي إلى الجدار..

وعاودتني تلك السكينة التي كانت تجتاحني كلما دخلت بيتاً من بيوت الله..

أغلق الشيخ المصحف بعد دقائق.. والتفت إليّ..

سألني: لا يزال هناك وقتٌ لصلاة الفجر.. ما الذي أتى بك إلى هنا؟

ابتسمتُ وأنا أفكر: يبدو أنني أكون عادةً في أماكنٍ لا يجب لي أن أكون فيها..

فأنا أسمع هذه العبارة كثيراً: ما الذي أتى بي؟؟

أجبته بعد لحظات: جئت لأراه.. وأشرت بإصبعي إلى الدرويش النائم..

- تقصد: نعمان..

- هل اسمه نعمان؟

- نعم، المهندس نعمان..

- أحقاً هو مهندس؟؟

- نعم كان المهندس نعمان.. كان مهندساً ناجحاً.. وأحبّ فتاة حباً جنونياً

وهي بادلته الحب.. وتزوجا.. وعاشا أياماً سعيدة..

ثم أصيبت بالسرطان.. بعد عدة أشهرٍ من زواجهما.. وماتت.. رحمها الله.. فأصيب المسكين بالجنون..

ومشى في الشوارع يكلّم نفسه..

وبات سخرية المارة يضحكون عليه تارة.. ويطعمونه إشفاقاً عليه تارة..

ويعتبرونه مبروكاً تارة أخرى..

وفي يوم منذ سنوات.. جاء إلى هذا المسجد.. وكان في حالةٍ من الجوع والتعب والوساخة..

وحين قلت له: تعال، أنت في بيت الله يا نعمان..

بكى وقال: ولكن الله هو الذي أخذها..

قلت له: الله يأبى أن يُعبَدَ مخلوقٌ سواه يا نعمان..

قال: نعم عبدتها يا شيخي.. وصار يبكي..

ومن وقتها صار يمشي وينشد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل.. ألا كل شيء ما خلا الله زائل..

ما الذي تريده من نعمان على كل حال؟

- كان يدفع عصاه في صدري ويهتف بي: ألا كل شيء ما خلا الله باطل..

ورأيته اليوم في حلمي وهو يضربني ويهتف بي: ألا كل شيء ما خلا الله باطل..

ابتسم الشيخ وسألني: هل أنت مؤمنٌ بالله؟

صدمني سؤاله: هل أنا مؤمنٌ بالله..؟؟

قلت: نعم أيها الشيخ.. ولكن..

ولكن لست متأكداً.. هل أعبد الله.. أم إنني أبحث عن إلهٍ آخر بين البشر..

قال لي ببساطة: يا بني كن مع الله ولا تبالِ..

ولا تنسَ أن الله لا يقبل الشراكة....

* * *

(٤٥)

حدثني قلبي هذا الصباح أنني سأرى نادية اليوم..

كنت قد ذهبت صباحاً مع أوراقي إلى مقابلةٍ للعمل في إحدى الجامعات الخاصة التي ستفتتح قريباً..

نادية جاءت في غيابي وتركت هاتف الفندق الذي تمكث فيه..

فكرتُ ألا أذهب لرؤيتها.. وأن أتجاهل وجودها كلّياً..

لكنني قررتُ إغلاق هذا الملفّ في حياتي..

حين ذهبتُ لأراها.. كانت قد تغيّرتْ كثيراً..

فشعرها لم يعد قصيراً.. ووجهها كان قد تغير..وحاجباها كانا قد تغيّر شكلهما..

كانت تبدو لي امرأةً غريبةً تماماً..

يبدو أنه قد مضى زمنٌ طويلٌ على فراقنا.. ولم أشعر بمروره..

تماماً كما تمنيت أن أنساها.. كان ذلك ما حصل..

فقد بقيتْ نادية تلك الفتاة الجميلة التي قضيت طفولتي معها.. والتي بقيت ذكرياتها محفورةً في ذهني..

في حين وقفتْ تلك المرأة أمامي..

والتي لا تمتّ بصلةٍ للطفلة التي كانت يوماً صديقتي..

وأنا أنظر إليها مدهوشاً أبحث فيها عن أي أثرٍ لنادية..

جلسنا نرتشف القهوة..

أنا أمسك بفنجانٍ من القهوة الدمشقية التي يسمونها التركية.. وهي تمسك بفنجان قهوةٍ أمريكية..

حاولتُ أن أكون ودوداً فسألتها عن أخبارها..

حدثتني عن زواجها الذي فشل.. ووالدتها التي انفصلت عن والدها منذ زمنٍ وتركتهما.. ووالدها المصاب بالسرطان.. والذي كانت أمنيته الأخيرة أن يقضي آخر أيامه في دمشق مسقط رأسه..

حين كنت أستمع لها واضعاً يدي في جيبي.. حابساً الصور التي تمرّ في ذهني داخلي كي لا تقرأها..

حابساً أفكاري داخلي خائفاً من أن تستشفني وتقرأني كما كانت تفعل دائماً.. خائفاً أن أسبب لها أي

ألم بعد أن أدركت أنّها لا تعدو أن تكون طفلةً مذعورةً خائفةً من ألا يقبلها الآخرون.. مثلما كنت أنا تماماً..

غير أنني منذ طفولتي كنت مدركاً مشكلتي في التأقلم..

أما هي، تلك المسكينة.. فلا تعرف أصلاً أنّها تعاني مشكلة التأقلم بين مجتمعين..

أو لعلها تتجاهلها..

عرضتُ عليها أن أكون دليلها هي ووالدها في دمشق.. مع أنني جديدٌ هنا..

ولكنني لن أبقى كذلك..

* * *

(٤٦)

كان لا بد أن أبدأ مع نفسي صفحةً جديدةً تماماً..

اتصلتُ بهيثم في منزله.. وطلبت منه موعداً لأزوره في بيته..

كان متحفّظاً كعادته.. ولكنني لم أهتم.. ولم يثنني تحفّظه عن عزمي..

سأذهب إليه حتماً.. فهو أخي..

حين كنت أقبّل يد جدّتي وأنا ألاطفها.. وأقول: قولي: الله يرضى عليك يا زياد سألتني: أين زياد هل مرّ من أمامك؟ لم يتناول غداءه اليوم..

أجبتها: لا تخافي.. أنا أطعمته بنفسي.. قولي: الله يرضى عليك يا زياد..

قالت: الله يرضى عليك أنت وزياداً..

سألني جدي: إلى أين أنت ذاهب؟؟

قلت: سأذهب لأزور أخي هيثماً..

قال: اتصلوا بك اليوم من الجامعة يريدونك أن تباشر عملك في الأسبوع المقبل..

انحنيت على يده لأقبّلها.. ولكنه حاول سحب يده..

انحنى..كان يسحب يده.. ولكنه أرخى وجهه ليقبل يدي..

عاودت تقبيل يده.. وأنا أدفعه بلطف خجلاً.. مرتبكاً.. ممتناً لكل شيء..

قال: زياد؛ أنت ابني الذي لم أنجبه.. أنا فخورٌ بك..

حين كانت خطواتي تعبر الطريق إلى بيت أخي.. كنت أفكر..

لعلك يا جدي ممتنٌ لوالدي الذي تركني لديك لتربيني..

سبحان الله! شاءت أقدار الله أن يحدث كل ذلك..

ربما لو تربيت لدى والدي لكنت أصبحت رياضاً آخر..

أو لعلّي أصبحت هيثماً آخر..

أنا حقا سعيد.. لأنني: زياد!!

* * *

(٤٧)

حين وصلت بيت أخي فتحتْ لي الباب سماء وهي تبتسم..

تذكرتُ شعاع القمر في الليلة المظلمة الشاحبة حين يظهر.. ويبدد الظلمة..

كانت ابتسامتها هي ذلك الشعاع الذي أشعرني بدفء العائلة..

صافحتُ هيثماً المتحفّظ المتردد بودّ.. وشددت على يده..

عرّفني بزوجته رفيف وابنه مازن..

جلسنا.. وسرعان ما اختفت زوجته مع ابنه في الداخل..

حين حلّ الصمت.. أدركت أنه آن الأوان لأتكلم..

بدأت بالحديث وقلت: أنا جئت لأخبركم أنني أنوي الاستقرار هنا..

وسأعمل أستاذاً في الجامعة الخاصة..

سألني: أما زلت تريد شراء بيت أبي؟؟

تنهّدتُ.. وأنا أشعر بموجات من التوتر تجتاحني..

قلت: لا..لم أعد أريد شراءه..

كنت أبحث عن أبي الذي كان من الممكن لو كان حياً أن يفرح برؤيتي..

الحقيقة يا جماعة أنني ذهبت ليلاً إلى بيته.. لأتأكد.. هل ترك لي شيئاً هناك.. أمانةً أو علامةً.. أو أيّ شيء..

ذهبت إلى هناك ليلاً واقتحمت المكان.. وبحثت جيداً.. فلم أجد سوى مظروفٍ مغلقٍ موجّه لك يا هيثم.. وجدته داخل المكتبة وتركته هناك..

ومنذ أيام كنت غاضباً وأنا أمرّ من هناك.. فرميت حجراً على النافذة فكسرتها.. وسأصلحه في أقرب وقت..

ربما كان تصرفاً غريباً .. أن أفعل ذلك.. ولكن هذا ما حدث..

على كل حالٍ جئت لأخبركم.. أنني سأبقى هنا مع جدي وجدتي..

بعد لحظات صمتٍ ثقيل.. قالت سماء: أنا سعيدةً أنك ستبقى هنا..

تنهد هيثم وقال: تعال إلى بيت أبي.. وأرني المظروف الذي أخبرتني عنه..

قالت سماء: سأذهب معكما..

حين دخلنا منزل أبي نحن الثلاثة.. كنت أفكر:

هذا ما تمنيته منذ قدومي إلى دمشق..

كان هذا هدفي منذ البداية..

أن يعترف إخوتي بي..

أن أدخل معهم بيت أبي كواحدٍ منهم..

لم لا أشعر بالنصر؟؟

أشعر بالفرح حقاً.. ولكن ليس هذا كل شيء..

تجوّلنا في المنزل.. وبدأت سماء تذكّر هيثماً بأحداث طفولتهما وتشير إلى أماكن وقوعها...

انتقلنا من غرفةٍ إلى غرفة.. وأنا أشعر أن سكان هذا البيت وأرواحه يراقبوننا..

حين دخلنا إلى غرفة المكتبة.. سألني هيثم: أين المظروف؟

بيدي كنت ألامس الكتب وأنا أتصفّح عناوينها بنظراتي..

وكأنني كنت أربّت بأصابعي على كل كتابٍ مسّته يد أبي من قبلي..

سحبتُ رواية الإخوة كارامازوف.. وفتحتها..

متخيلاً مشاعر أبي وهو يقرأ هذه القصة ويتخيلني: أنا ابنه الذي لم يعترف بي..

ويتمنى ألا أصبح كبطل القصة؛ مجرماً حاقداً ناقماً..

سحبتُ المظروف.. وناولته لهيثم..

حين بدأ بفتحه..

كنت أشعر وكأنني أقف في حرمٍ مقدسٍ ستكشف فيه أسرارٌ أمامي..

رائحة الكتب التي أمامي وهيبة مؤلفيها كانتا تشعرانني بالارتجاف..

واضعاً يديه على وجهه.. خارجاً من الغرفة.. وقد لحقت به سماء..

شعرتُ أن لا حقّ لي بالتدخل..

ولكن دموعي بدأت تتجمع في بلعومي.. وبدأت أشعر بالاختناق..

لست أدري كم مرّ من الوقت..حين كنت قد فاض بي..

فقررت الخروج من هذا المكان المملوء بالذكريات إلى درجةٍ تضيق علي..

ما الذي لي هنا؟؟

أحقاً قدسيّة عقد زواجٍ تمنحني حقّ الوقوف على هذه البلاطات..؟؟

أم هو لا يتعدى كونه حقاً بيولوجياً..

يجعل مورثاتي ودمي ينتميان إلى صاحب هذا المكان الذي رحل؟؟؟؟؟

لست أعرفه.. بل أنكره..

لم أعرف إلّا أباً واحداً في حياتي..

كان يحضر اجتماع أولياء الأمور في مدرستي..

علّمني كيف أركب الدراجة بعجلتين..

علّمني كيف أمسك بالقلم وأخط به خطوطاً سحريةً تنقلني إلى عالمٍ آخر..

حين ذهبت لعمل جراحة اللوزتين في المشفى عندما كنت في العاشرة..

كان هو من حملني..

كان هو من دفع حساب المشفى..

كان هو من سقاني أول كأس حليبٍ بعدها..

لا أعرف من هو هذا الرجل الذي أقف في غرفته الآن وبين أوراقه..

ولكنه حتماً ليس أبي الذي أعرف رائحة حضنه الدافئ..

الذي أحفظ عن ظهر قلبٍ نبرة صوته الأجش..

الذي يمكنني أن أعدّ شعرات شعره الشائبة المتبقية على قمّته..

الذي يمكنني أن أذكر كل تجعيدةٍ أو تغضّنٍ في صفحة وجهه...

لست أدري كيف خرجتُ من الغرفة متوجهاً نحو باب المنزل..

غير منتبهٍ لهما وهما يقفان في الصالة ينظران إليّ..

استدرتُ عندما نادتني سماء..

حابساً شهقة الاستغراب التي كادت تخرج من فمي.. وأنا ألاحظ عيني هيثم الدامعتين.. ذلك الرجل المتحفّظ البعيد..

قالت: هناك شيء يهمّك أن تعرفه بالمظروف..

حين تكلّم.. كنت أسمع صوتاً جديداً منه.. يقول:

والدي أوصاني بك وهو على فراش الموت وذكر اسم أمّك هناء الصباغ..

كنت واقفاً أنا ورياض قبل موته بلحظات..

ولكن رياضاً أصرّ على أن الأمر لا يعدو أن يكون هذياناً لشخصٍ يحتضر..

في هذا المظروف كتب قصة زواجه بأمك وأرفقها بعقد زواجهما..

وأوصاني أن أعتني بك..

* * *

(٤٨)

صار لدي القدرة على الاعتناء بنفسي منذ زمن..

وحان دوري لأعتني بالآخرين الذين اعتنوا بي منذ صغري..

هكذا حدّثت نفسي.. وأنا أتذكر كلمات أخي هيثم الأخيرة..

بدون أن أعي وجدت نفسي على باب المسجد ذاك..

باحثاً عن نعمان وعن المؤذن..

متأنقاً.. داخلاً إلى المكان الذي وجدت فيه ما أبحث عنه..

ذلك المكان الذي وجدت فيه سكينتي.. وعرفت فيه مشكلتي..

سلّمت على نعمان وهو يغني: ألاااااا كل شيء مااااا خلاااااا الله بااااااااطل

سألته: كيف حالك يا نعمان؟

أجابني: من الله بخير.. ألا كل شيء ما خلا الله زائل..

سلّمت على المؤذن وشكرته وأعطيته رقم هاتفي إن احتاج شيئاً..

سألني: هل وجدت ضالّتك يا بني؟؟

قلت: الحمد لله.. ادع لي ألا أضيع ثانية..

* * *

(٤٩)

في حلمي كنت عصفوراً أبحث عن أطول شجرةٍ لأبني فيها عشّي..

انتقيت أعلى غصنٍ فيها ووقفت على قمّته أراقب الفضاء وأتنسم الحرية..

حين صحوت كنت أشمّ رائحة الربيع تتسلّل إليّ..

مرتدياً ملابسي.. وبكامل أناقتي.. داخلاً مبنى الجامعة..

وقد بدأت زهور شقائق النعمان تظهر على الطريق متحرّشةً بي..

طلابٌ وطالبات.. فتياتٌ وفتيان..

أناسٌ من كلّ الأعمار والأشكال يمرون بجانبي..

أسمع خطواتي على الأرض المرصوفة.. تصدر صوتاً كله تصميمٌ وعزم..

سأكمل حياتي الرائعة المليئة بالعافية والرضا..

سأحاول زرع الجمال والمحبة والعطاء.. في تلك النفوس الشابة المتعطشة إلى العلم..

سأعطي الحياة قدر ما أستطيع..

شكراً يا دمشق

تم بحمد الله

